اقرأ

دكتورة : كلير فهيم

الحب والصحة النفسية لأبنائنا

سلسلة ثقافية شهرية



اقرأ

[٤٢٥]

رئيس التحرير رجب البنا

دكتورة كلير فهيم

إخصائية الطب النفسى

الحب والصحة النفسية لأبنائنا

الطبعة الثانية



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشـاء هـذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العـربيـة وأن ينتفعوا ، وأن تـدعـوهـم هذه القـراءة إلى الاستزادة من الثقـافة ، والطموح إلى حياة عقليـة أرقى وأخصب من الحياة العقليـة التى نحيـاهـا

طـه حسين

النـاشر دار المعارف ١١١٩ شارع كورنيش النيـل - القـاهـرة ج. م. ع.

الإهداء

إلى كل والدين يرومان الحفاظ على صحة أبنائهما النفسية عسى أن يدركا قبل فوات الأوان أن العلل النفسية تحطم وتشق ، وأن الطريق إلى سلامتهم نفسياً ليس مفروشاً بالورود والرياحين العطرة

وأن هذه البراعم الصغيرة فى أكمامها ، فى حاجة إلى رعاية وعناية حتى تتفتح فى زهو وإشراق وكأنها شقائق النعمان ، إليهما أهدى هذا الكتاب عسى أن ينير لهما الطريق ويحقق لأبنائهما طفولة رغدة ناعمة ، ومراهقة هادئة ساكنة ، وشباباً متزناً مستقراً وشيخوخة سابغة الهناءة

د . كلير فهيم

المقدمة

إن الطب النفسى عندى هواية قبل أن يكون مهنة   فناً   كالرسم والموسيقى والقصص   الإنسان عادة من هواة الأنين   إننا نهوى الأغانى التى فيها الأنين ، ونهوى قراءة القصص الحزينة لأنها تملأ صدورنا بالأنين وتشد الدموع من عيوننا

إن الإنسان إن لم يحزن على نفسه بحث عن شخص آخر يحزن عليه ، أو يتمثل نفسه بطل إحدى القصص المثيرة ، وتحمل ما يعانيه البطل من عذاب ، وألم وحزن   وأنا أهوى أنين مرضاى ، وليس معنى ذلك أنى أتلذذ بعذابهم   أبدًا ولكنى أعيش فى عذابهم وأحاول مساعدتهم ، وأسعد براحتهم

مرضاى لهم قصص عجيبة   قصص الإنسانية عندما تتعرى من ثيابها ، وترفع عن وجهها القناع   القناع الذى يفرضه علينا المجتمع ثم تبدو النفس البشرية كما هى   غابة كثيفة موحشة تنمو فيها أشجار مفزعة   شجرة الخوف ، شجرة الأنانية ، شجرة الحقد وشجرة الغيرة .
و   و.   وتحت أقدام الأشجار زهور رقيقة تحاول عبثاً أن تصل إلى نور الشمس   زهرة الحب   زهرة المعرفة   زهرة الأمومة   وزهرة التعاون الاجتماعى   و

وعملى هو أن أجوس خلال الغابة ، وفى يدى مصباح خافت الضوء ،

لأكتشف أشجارها المفزعة ، وهضابها وبراكيها وأحرص على ألا أطأ بقدمي إحدى هذه الزهور الرقيقة بل أحنو عليها وأتعهدها حتى تشب وتصل إلى نور الشمس وتسعد بالحياة هذه هي مهنة الطب النفسي

فالطب النفسي من بعض جوانبه على الأقل ، هو مهنة الحياة مع النـــاس فى متاعبهم ومعاناتهم ومحنهم ، وليس أمام الطب النفسي فى ذلك خيار ، ولا له عنه بديل . والأداة الرئيسية فى عمل الطبيب النفسي بالإضافة إلى أمانته وعلمه ، أن يصغى فيحسن الإصغاء ، لأنه بالإصغاء يعطى مريضه فرصـــة للتنفيس عما بصدره ، والشعور بأن هناك إنساناً قـــادراً يهتم بأمره وهذا فى ذاته باعث على اطمئنانه والاطمئنان خطوة أولى وحتمية لرؤية المشاكل فى أبعادها الحقيقية ثم لأنه بالإصغاء يعطى نفسه فرصة إلمام أشمل بالظروف التى اكتنفت حياة المريض وأسهمت فى انبثاق مشكلته ، وتصورها ، حتى صيغت فى الصورة التى دفعت به إلى الطبيب يسأل عونه ويطلب مساءلته.

فالطبيب النفسي يستطيع كذلك بالإصغاء أن يدرك ما يجرى فى العقل الباطن وأن يتحكم فيه ، لأن ذلك هو الطريق الأول إلى أعلى مراتب السعادة فمن العقل الباطن ينبع الخيال وتنفجر قوى الإبداع والابتكار فى حين أن الجهل بالعقل الباطن يؤدى إلى شروده ، وهذا كفيل بالقضاء على صاحبه ، إما ببطء عن طريق إصابته بالمرض العقلى أو الانحرافات الخلقية على أنواعها وإما أن يأتى الدمار سريعاً فى صورة جرائم وحشية وأعمال من العنف المخيف

فعن طريق اكتشاف محتويات العقل الباطن يمكن فتح أبواب الأمل أمام كثيرين ممن يترددون فى مهاوى اليأس والقنوط ، وذلك عن طريق التفهم العميق فى محيط تربية النشء ، وتوضيح الأسباب الدافعة للانحراف ، وتهيئة العوامل على الحماية من الانحرافات الخلقية المتعددة فقد تبين من التحليل النفسى أن هناك قوى مجهولة توجهنا فى معظم الوقت ونحن بكشفنا الستار عن عناصر هذه القوى ، نزيل الضغط عن النفس ونعيد المرء إلى طريق السلامة

فى الجزء الأول من كتابى هذا أقدم عرضاً لبعض الحالات المرضية التى عرضت علىّ واكتشفتها وقمت بعلاجها بنجاح كانت معظم أسباب الاعتلال بها هى نتيجة الأخطاء التربوية التى يرتكبها الأهل فى تنشئتهم لأبنائهم ، وحرمان طفولتهم من المناخ الصحى السليم ، فترسب آثارها فى قرارة عقلهم الباطن ، وتظل تكبر وتنمو بمضى الوقت إلى أن تنفجر بصورة مدمرة

وقد حرصت على أن أقوم بالتحليل النفسى لكل حالة حتى يمكن معرفة الأسباب والدوافع الكامنة والمترسبة فى العقل الباطن والتى تؤدى فيما بعد إلى الانحراف ثم توضيح الأخطاء التربوية التى ارتكبها الأهل فى كل حالة ، حتى يستطيع الآباء والأمهات الاستفادة من قراءتها وتجنب الوقوع فى هذه الأخطاء . وبذلك نستطيع أن نقى الأبناء من الاضطراب النفسى أو الانحراف ونضمن لهم الحياة السعيدة الهانئة فى المناخ النفسى الصحى

أما الجزء الثانى من الكتاب فقد اخترت بعض المواضيع الحية التى تمس حياة أبنائنا والتى يحتاج الآباء إلى معرفتها كى يستطيعوا أن يساعدوا

أبناءهم على أن يحيوا حياة هادئة متزنة أساسها التعاون والمحبة والإيثار وحب الغير ، بعيدة عن الحقد والكراهية والأنانية والغيرة . وبذلك نسعد بهم ويفخر الوطن بأعمالهم

وأخيراً ، إذا استطاع هذا الكتاب بعد ذلك أن يلقى ولو قبساً خافتاً من الضـــوء على أصول التنشئة النفسية للطفل التى كثيراً ما يحلك فيها الظلام ، وأن ينبه أذهان الآباء والأمهات إلى ما فى ذلك من خير وسعادة لأبنائهم ، ومساعدتهم عن طريق عرض الحالات الواردة فى هذا الكتاب من رؤية أفضل لمشكلات أبنائهم النفسية وتناول سليم لها وأن ينير السبيل أمام القائمين والمشرفين على تربية الطفل إلى طريق المعرفة الصحيحة للتنشئة النفسية للفرد فى المراحل المختلفة ، فإذا استطاع أن يفعل هذا أو شيئاً منه فذلك ما رجوت ، وما قصدت إليه

د . كلير فهيم

إخصائية الطب النفسى

تحريراً فى ١٩٧٥

الجزء الأول

كان إشعال النار .. مصدر سعادتها

جاءتنى الأم ومعها ابنتها البالغة من العمر سبعة عشر عاماً ، كانت الأم سيدة جميلة الشكل ، أنيقة الملبس فى اعتداد واحترام ، وقورة فى حركاتها وسكناتها مهذبة فى حديثها الهادئ المتزن كان يظهر عليها فى بعض الأحيان قلق مختلط بشعور مزعج حين سردها قصة ابنتها التى جاءت تطلب علاجها

وعلى حسب عادتى بدأت بمقابلة الأم أولا على انفراد حتى لا تكون شكواها من ابنتها على مسمع منها ، ولما سألتها عن فحوى ما يسخطها على ابنتها ، سردت على مسامعى قصة كاملة متناسقة الأحداث . وكان أساس شكواها من ابنتها أن الفتاة تخفى أدوات المنزل وتلقيها بعيداً ، وتدخل منازل الغير وتعبث بمحتوياتها ، وتعدّ تشديد أهلها بالرقابة عليها مضايقة تقابلها بتحطيم أثاث المنزل وإشعال النار فيه ، ولم تجد الأم أية وسيلة أخرى لعلاجها سوى عرضها للفحص الطبي النفسى للعلاج والإفادة بما يتبع من أسلوب تجاه انحرافاتها السلوكية

وبعد أن فرغت الأم من حديثها ، طلبت إليها أن تبقى فى غرفة الانتظار ريثما أدعوها بعد الانتهاء من مقابلة الفتاة . وأكدت لها أنه سيكون فى وسعى بعد الانتهاء من مقابلة ابنتها أن أفتيها فى أمر الفتاة وأرشدها إلى ما ينبغى عليها أن تقوم به لعلاجها ثم دخلت الفتاة

وأبادر فأقول إن الفتاة تركت فى نفسى منذ الوهلة الأولى أثراً

طيباً   فمظهرها ليس فيه ما يدل على انحراف ، بل إنها على النقيض من ذلك تماماً ، كانت تبدو نموذجاً حسناً لبنات الطبقة المتوسطة كانت نحيفة الجسم ، ضئيلة الحجم ، ضعيفة البنية بشكل واضح شكلها من حيث الجمال يعتبر فوق المتوسط وفى عينيها العسليتين الواسعتين ملامح الذكاء الممتزج بالقلق   مظهرها العام يوحى بأنها أصغر سناً من عمرها الحقيقى.   حركاتها وحديثها يتسمان بالتردد الممتزج بقدر واضح من الشك والتوجس ، شديدة الخجل   عديمة الثقة بالنفس ، وبالناس

بدأت الفتاة تتحدث وتسرد تاريخ حياتها والأحداث المختلفة التى مرت بها ، وتوصف إحساسها من ناحية والديها وناحية المجتمع والناس

وبدراسة الحالة تبين ما يأتى

قدر لها أن يجئ ميلادها ، وسط خلاف شديد بين والديها أخذ يتفاقم ويشتد حتى انتهى إلى الانفصال بينهما قبل أن تولد بشهر ، ثم إلى الطلاق وهى ما تزال تدرج إلى الشهر الثامن من حياتها طال زمن الإرضاع معها حتى امتد إلى ثلاث سنوات ، ولم تستطع ضبط وظيفة التبول حتى أدخلت إصلاحية بعد أن جاوزت العاشرة

أصيبت وهى فى الثالثة من العمر بحمى ألزمتها الفراش ثلاثة شهور ، وبعد أن شفيت منها كانت تصاب بنوبات صرع متكررة ومصحوبة بأحلام مخيفة ، تهب من نومها صارخة وهى فى حالة رعب شديد

بدأ الانحراف فى سلوكها منذ سن مبكرة جداً ، فكانت تخفى كل

ما تصل إليه يدها دون أن تقصد إلى الانتفاع مما تخفى فيما بعد ولم يردعها العقاب المؤلم (الكى بالنار مثلا) عن الاستمرار فى هذا السلوك كانت تخفى المال والحلى عن أمها كما كانت تخفى نفسها أحياناً ، ولا تعبأ ببحث أمها عنها دون أن تهتدى إليها طفولتها كانت تتميز بالحرمان والشقاء ، فقد تزوج أبوها وهى فى الثالثة ، وتزوجت أمها وهى فى السادسة ، وكانت الأم تحدثها عن أبيها حديثاً بشعاً مخيفاً ينفرها منه ويبغضها فيه ولكن الأم حين تضيق بأعمال ابنتها كانت ترسلها إلى بيت أبيها فكان هذا عند الطفلة أقسى عقاب لأنها كانت تكره أباها وتمقت الذهاب إليه وترى فيه رجلاً بغيضاً ، مقتراً أنانياًّ ، لا تطيب الحياة معه

وفى بيت أبيها كانت تسرق أيضاً كل ما تصل إليه يدها وتخبئه . وكانت سرقتها تتناول مواد الطعام ، ومفاتيح الأبواب والمال والملابس ، كما كانت تكيد لأبيها وزوجته بمختلف صنوف الكيد دون أن ترتدع من العقاب ، وقد اطردت وسائل أبيها فى العقاب حتى بلغت من القسوة والعنف مبلغاً لا تزال آثاره باقية بجسمها حتى وقت الفحص الطبى النفسى لها

كان الأب رجل أعمال معروفاً فى جميع الأوساط الراقية التى يتحرك فيها بمبالغته والاعتداد بالكرامة وقد نالت الأسرة نصيب الأسد من صلابته هذه إذ كان يحكم أهل بيته بديكتاتورية لا تقبل المراجعة ، الكلمة دائماً كلمته . والرغبة دائماً رغبته والويل لمن يناقش حقه فى فرض إرادته لأنه – كما يعتقد فى نفسه – أقوى وأعقل وأبعد نظراً من الناس كلهم ، وكرامته الشامخة كالجبل الأشم لا تقبل أن ينزل إلى مدارك

الاعتذار عن غلطه أو الرجوع فى رأى أو مجرد مناقشته كان أنانياً مقتراً ولكل هذه الصفات السابقة لم تدم حياته مع والدة الفتاة وتم الطلاق بينهما

وبعد أن جاوزت الفتاة الخامسة بقليل ، كانت تحس الرغبة الجامحة فى رؤية النار المشتعلة ، وقد عرضتها هذه الرغبة فى إشعال النار واللعب بها إلى تجربة مفرطة ، إذ هبّت فيها ذات يوم وهى طفلة وأكلت شعرها ، ولولا إسراع أهلها إلى نجدتها لقضت عليها ، ولكنها برغم ذلك ظلت على تعلقها بالنار

وحين بلغت السابعة من العمر لم يكن للطفلة مكان مستقر ، إذ كانت حياتها مضطربة بين منزل أبيها ومنزل أمها ، ولم يكن أحد يحتمل كيدها أمداً طويلا ، فكان والدها يرسلها إلى أمها تخلصاً من مشاكلها وقد شقيت فى البحث عن الطمأنينة والحب والعطف بين الاثنين ، ولكنها لم تلق غير الكراهية والحرمان

ولما بلغت السابعة ألحقت بالمدرسة ، ولكنها سرعان ما هربت منها ، وحاول والدها أن يردعها بالضرب والإهانة ولكن دون جدوى . وانتهت حياتها المدرسية بعد حين قصير ، وعادت إلى اللعب وممارسة عملها المفضل ، وهو السرقة وإخفاء ما تسرقه ، وسيان عندها أن يكون ذلك من صنوف الحلوى أو مفاتيح المنزل ، فإنها لم تكن تنتفع بما تسرقه ، بل كانت تخبئه حتى يضيع أو ينكشف أمره مصادفة

واستمر سلوكها مطرداً نحو الانحراف دون أن يردعها عقاب أبيها وقسوته ، حتى اضطر الأب فى نهاية الأمر إلى إرسالها إلى إصلاحية

الأحداث ، وكانت قد جاوزت العاشرة ، انتقلت الفتاة إلى برودة الإصلاحية التى تضم أكثر من ٣٠٠ طفل ، وأخذت نفسها تذوب فى هذا القطيع الإنسانى الضخم البائس المنحرف السلوك ، ولم يمض وقت طويل حتى أخذت أحوالها تتغير إلى الاسوأ ، نحو ميلها إلى العدوان ، فكانت تحرق الأوراق الرسمية ، وتتلف كتب التلميذات وأوراقهن وتفسد الخيط الذى يستعمل فى أعمال الإبرة ، وتخفى حاجات النزيلات وتعتدى عليهن أحياناً بالضرب ، وتسرق بعض أدوات الإصلاحية لإخفائها وظلت على هذا النحو حتى أخرجت من الإصلاحية بعد أن بقيت فيها أكثر من أربع سنوات

فعادت إلى التأرجح بين أبيها وأمها ، وكلاهما راغب عنها ، وعادت إلى سابق سيرتها من السرقة وإشعال النار ، وفى بعض الأحيان كانت تضرم النار فى فراش أبيها ، وفى أحيان أخرى – أثناء نوبات تهيجها – كانت تضرمها فى أى شىء تجده ، وكأنها تأتى عملا من أعمال التهور . ومن ذلك أنها سلطت ذات يوم عدسة على لحاف منشور لبعض الجيران فأحرقته وكانت أمها تمل عقابها فى بعض الأحيان ، فكان هذا التغاضى لا يروق الطفلة وما تزال بها تعاكسها وتثيرها حتى تنهال عليها ضرباً وإيذاء فتهدأ وتستريح

ولما فاض بالأم وعجزت عن أن تقاوم انحراف سلوك الفتاة أحضرتها للفحص والعلاج ، وكانت حينئذ فى السابعة عشرة من العمر فلجأت أخيراً إلىّ كطبيبة نفسية ، بعد أن عرضتها على الكثير من الأطباء ، ولكنها لم تصل إلى أى نتيجة تؤثر على علاجها من هذا الانحراف فى السلوك

التحليل النفسى للحالة

أخذت كطبيبة نفسية أنقب فى لفائف العقل الباطن بحثاً عن الأسباب والظروف التى تدفع الفتاة إلى هذه التصرفات المنحرفة وكنت أحاول أن أصل إلى أعماقها إلى عقلها الباطن لاستخراج الجرثومة التى ترقد فيها والتى تسبب لها الانحراف وقد أمكننى بعد عدة شهور من العلاج تعديل هذا السلوك المنحرف والوصول إلى نتيجة مرضية فى علاجها

فهذه الفتاة كان لحياة البيئة المفككة التى عاشت فيها تأثير سيئ على نفسيتها ، الأمر الذى أدى إلى انحراف سلوكها نتيجة لاضطرابها الانفعالى ويمكن القول بأنها لم تنعم بحياة أسرية مترابطة وأن طفولتها كانت طفولة مهملة غير مستقرة ، بعيدة عن الطمأنينة مليئة بالانفعالات النفسية المؤلمة

* فالأحلام المزعجة فى الطفولة المبكرة لها ، هى فى الأرجح أحلام القلق النفسى ، تفصح إلى حد كبير عما كان يملأ نفسها من الاضطراب والحرمان من الحب والعطف والحنان وعدم الشعور بالرضا

* والسرقة التى كانت تقتصر فيها على إخفاء ما تسرق دون الانتفاع به كانت بمثابة الاحتجاج والنداء والتعبير عن الحرمان من الحب والحنان

* وإشعال النار كان من السمات البارزة فى انحرافها ، وأن تكرار حوادث الإشعال مع غياب العوامل الشعورية فيها وتأكيد الفتاة

جهلها بالدوافع إلى ذلك العمل ، فيما عدا رغبتها فى رؤية النار المشتعلة ، ليشير إلى أن الإشعال يدخل فى نطاق الأعمال الإجبارية العصابية التى تقررها عوامل لا شعورية

فإشعال النار عمل يصدر عن البعض ، وهو إفصاح عن نزعة نحو التدمير أو الانتقام من حب غير مجاب وكلما ازداد تأخيره بالعوامل النفسية عند مشتعلى الحريق يتضح لنا أنهم بعيدون عن الرضا والاستقرار العادى ، فهم يعيشون ، نهباً لمخاوف مرضية تجعلهم فى حالة توتر لا يطاق ، فيكون الإشعال بمثابة الانفجار الذى يعينهم على التخلص من تلك الحالة إلى حين .. وقد يكون أيضاً لإضرامها المتكرر فى فراش أبيها دلالته النفسية التى لا تخفى وهى حقدها وكراهيتها ورغبة انتقامية منه

فالحياة التى مرت بها الفتاة مليئة بالإهمال والقلق والبغض والحرمان ، خالية من العطف والحب والإحساس بالأمان هى الحياة التى تنمو فيها النزعات الشاذة والدوافع المريضة

فبالمراجعة القليلة لحياة هذه الفتاة يظهر شعور قوى بالخطيئة مع نزعة مرضية إلى العقوبة حيث إنها لا ترتاح إذا غضت أمها النظر عن عقابها فكانت لا تزال تثيرها حتى تنهال عليها ضرباً مبرحاً ثم تهدأ بعد ذلك وإنه مما يزيد الشعور بالخطيئة تلك الطبيعة المرضية التى تتلذذ بالألم سواء فى مظهره المادى أو المعنوى

ومن المرجح أيضاً أن إخفاقها المتكرر فى الهرب من المدرسة كان مرجعه إلى الشعور بالخطيئة فإن مراجعة تلك المحاولات تكشف عن أسلوب واحد فيها لا يتغير وينتهى بها دائماً إلى الضبط والافتضاح ،

ولو لم يكن الشعور بالخطيئة ورغبة العقاب وراء محاولات الهرب لما اختارت هذا الطريق المفتوح ولما تشبثت به بعد وضوح فشله عدة مرات

عوامل الاضطراب

إن العوامل التى أدت إلى اضطرابها النفسى وانحراف سلوكها هى

١ – مجىء ميلادها مع خلاف شديد بين والديها انتهى بالطلاق وهى فى الشهر الثامن ، فقدر لها أن تقوم برعايتها وإرضاعها أم قلقة مضطربة نتيجة الظروف الأسرية القاسية التى انتهت بالطلاق. ومما لا شك فيه كان قلقها النفسى ينعكس أثره فى معاملتها لابنتها

٢ – نشأة الفتاة فى أسرة مفككة حرمتها من الدفء الأسرى والحب والحنان والاستقرار والشعور بالانتماء

٣ – سوء معاملة الطفلة من أمها وعقابها بأقسى أنواع العقاب (كالكى بالنار مثلا) وكذلك قسوة الأب وأنواع العقاب العنيفة التى كان يلجأ إليها فى معاملتها ، ولاسيمـا أنها كانت تكرهه وترى فيه رجلا بغيضاً مقتراً ، أنانياً ، لا تطيب الحياة معه كما أفهمتها أمها ، فكان انتقامها لهذه المعاملة القاسية يبدو فى صورة السرقة وإشعال النار

٤ – إرسال الفتاة إلى الإصلاحية واختلاطها بالمجرمين هناك وسوء معاملة الجميع لها لما كانت تأتى به من أعمال غير لائقة زاد من إحساسها بالعدوان وزاد من سلوكها المنحرف

٥ – عدم استقرار الفتاة واستمرار تنقلها بين أبيها وأمها وسوء معاملتها وحرمانها من الحب جعلها تشعر أنها منبوذة من الجميع ، فحقدت هى

بالتالي على المحيطين بها وامتد ذلك إلى المدرسة والتلاميذ ثم إلى الإصلاحية ومن فيها

العوامل السابقة ، وحرمانها من الحب والحنان والعطف والطمأنينة والاستقرار ، وعدم وجود إنسان فى حياتها ترتاح إليه ويستطيع أن يقدر مشاعرها ويفهمها ويوجهها ويقف بجانبها أدى كل ذلك إلى انحراف سلوكها الذى ظهر منذ طفولتها ، واستمر معها كوسيلة للانتقام ممن يسيئون إليها ومن الملاحظ أنه كلما اشتد عقابها زاد انحراف سلوكها لزيادة إحساسها بالعدوان

كان من الأسس الرئيسية قبل أن أبدأ فى علاجها أن أوضح للأم أسباب انحراف الفتاة لحرمانها من الحب والحنان وعدم فهم حاجاتها النفسية ونشأتها فى بيئة مفككة ، وعليها أن تعمل لتعديل أسلوبها فى معاملة الفتاة حتى يمكن أن تنال حبها وحتى يمكن للفتاة أن تعطى حبها لمن حولها « ففاقد الشيء لا يعطيه » كما نبهت الأم بعدم إرسالها إلى أبيها ، وأن تقوم هى نفسها برعايتها ومساعدتها على الانتظام فى العلاج

وفى أثناء علاجى للفتاة كنت أقوم بتوجيه الأم إلى كيفية معاملة الفتاة والأسلوب النفسى السليم فى هذا التعامل

كانت الفتاة أثناء الجلسات النفسية تشكو من سوء معاملة الجميع لها وكان يصحب ذلك انفعال شديد وبكاء فى بعض الأحيان واطمأنت إلىّ أى إلى وجود من يحس بها وبعذابها ويقف بجانبها ويمنحها من العطف ما افتقدته طوال السنوات السابقة ، وتدريجياً بدأ أسلوب الفتاة يتحسن لشعورها بالاطمئنان واستقرارها طرف أمها وعدم عودتها لأبيها ولم يمر

أكثر من أربعة شهور حتى ظهر عليها الاتزان النفسى فى السلوك ، وتقدير الأمور وكانت الأم حين تلاحظ تغير سلوك ابنتها إلى الأحسن وهدوءها وتخلصها من السلوك المنحرف ، يزداد تعاونها فى العلاج بحسن معاملتها للفتاة ومحاولة فهم حاجاتها النفسية مما ساعد على نجاح العلاج النفسى

مما سبق نرى أن البيئة الأسرية المفككة والمعاملة القاسية من الوالدين وعدم فهم حاجات الأطفال النفسية فى مراحل العمر المختلفة يؤدى إلى انحرافهم وارتكابهم أسوأ الأعمال لو لم يلقوا من يساعدهم ويقف بجانبهم ويوجههم ويعالجهم نفسياً إذا لزم الأمر

فالأسرة هى البيئة الأولى للإنسان ، البيئة التى تمده بالمحفزات فى كفاحه الدءوب نحو التكيف أو تقيم المعوقات دون ذلك الكفاح لذلك فإنه من البديهى أن تحقيق النضج الانفعالى ، أى الوصول إلى صحة النفس ، لا يمكن أن يتم إلا من خلال طفولة نعمت بالحب والحنان والقدوة الطيبة والطمأنينة ، وأنه لن يستطيع أحد غير الوالدين تزويد الطفل بذلك الغذاء الوجدانى الذى لاغنى عنه لصحة النفس وما انتشار الآفات النفسية فى مظاهرها المتعددة إلا دليل على أن بيوتاً كثيرة لم تستطع أن تحيط صغارها بالحب والطمأنينة اللذين بدونهما سيعيشون فى سقم واعتلال فإن الذى لم يحصل إلا على القليل من الحب فى سنيه الأولى سيظل متعطشاً إلى المزيد من هذا الغذاء الوجدانى شاعراً بالحرمان من حقه من أن يحب عاجزاً بدوره عن أن يحب

عاشت ربع قرن من عمرها بلا حياة

الحياة لا تخلو من كذب ورياء وخداع ، ولكنها كذلك لا تخلو من الحب والوفاء والتضحية الحياة مزيج من الخير والشر ، من اللذة والألم ، من السعادة والشقاء . ويخدع نفسه من يظنها خيراً خالصاً ، ويخدع نفسه كذلك من يتوهمها شراً صرفاً يخدع نفسه عقاباً لها أو عقاباً لغيره ، بدافع الخوف ، أو الغرور أو حب الظهور أو ما إلى غير ذلك من دوافع ومن الناس من يستطيع أن يحلل دوافعه ، ويهتدى بنفسه إلى الخطأ فى سلوكه أو فى سلوك من حوله فيعدل عنه أو يحاول أن يتخلص مما يسئ إليه ، ومنهم من لا يستطيع ذلك فيظل يتألم ويتعذب إلى أن تأتيه المساعدة من طبيب من أطباء النفس

جمع الحب بينهما منذ الطفولة الباكرة ، وشهد كل مكان فى منزله أو منزلها مظاهر هذا الحب . وعندما كبرا انتقل حبهما إلى المزارع الخضراء اليانعة حيث كان كثير من سكان قريتهما يحلو لهم أن يشاهدوا طفلين يجريان وراء بعضهما يلتهمان قطع الحلوى أو يعبثان بزهرة قمح وليس هناك أقوى من حب الطفولة ، فهو باق فى أذهاننا وقلوبنا حتى عندما نصل إلى الشيخوخة فنذكره ونستطعم مذاقه الخاص الذى لا يتغير برغم مرور الأيام ، وحب الطفولة قوى لأنه لا يعرف غرضاً خاصاً ، ولا هدفاً ذاتياً ، وهو أول شيء ينطبع فى أذهاننا من العواطف البريئة الحلوة

كانت وفاء وأحمد أقارب ، هى ابنة عمته وهو ابن خالها ، والبيتان

متجاوران ، أمها وأمه وحدة لا تتجزأ ، والأبوان صديقان لا يفترقان ، وتمتد تلك العلاقات الطيبة من الآباء إلى الولد والبنت فينعمان بالحب منذ أن عرفا الحياة ، ويأكلان ويشربان معاً ، ويقضيان معاً أجمل أوقاتهما كان الأمر كذلك عندما كانا طفلين صغيرين لا يتجاوز عمر أحمد الثامنة ولا يتجاوز عمر وفاء الخامسة ولكن الأمور تغيرت بعد ذلك ، فقد فرضت عليهما الرقابة من جانب الأهل وأصبح انفرادهما معاً عملية خاطئة للغاية تستوجب توجيه اللوم إليهما وبخاصة إلى وفاء ، التي شبت على أن للبنت حقوقاً أقل بكثير من الولد وأن ما يباح للولد أكثر بكثير مما يباح للبنت

وعندما بدأت وفاء مرحلة البلوغ عوملت من قبل والديها وخاصة والدتها معاملة مختلفة ، وأصبحت محاصرة بالقيود والمحظورات والممنوعات فوجدت أن المحظورات بالنسبة لها أضعاف المباح وبقدر ما كان والداها يحبانها ويسهران على راحتها ، كانا فى ذات الوقت يقسوان عليها من حيث لا يعلمان ، ومن ذلك مثلا كانا يحرمان عليها ارتداء الملابس الحديثة المناسبة التى يلبسها مثيلاتها من البنات ويفرضان عليها الفساتين الفضفاضة التى تصل أطرافها إلى ما تحت الركبة ، وبذلك تبدو بين الأخريات غريبة وشاذة ، وتقاسى من زميلاتها فى الدراسة الكثير من طعنات السخرية

يضاف إلى ذلك حرمانها من ممارسة جميع الأنشطة المدرسية التى تجرى عادة فى نطاق الدراسة وخارجها مثل الرحلات والمعسكرات الصيفية والحفلات الاجتماعية فكانت زميلاتها يستمتعن بوقتهن ، أما هى

فكانت تقاسى الحرمان من هذا النوع من الاستمتاع حسب رغبة والديها
ومع ذلك كانت راضية لأنها لا تملك إلا الرضا ، سعيدة لأن يوماً سيجئ وستنقذ فيه من السجن المنزلى لتتحرر ولو قليلا لتشعر بما فى الحياة من حرية

بعد حصولها على الثانوية العامة ، ألحقت بكلية البنات حيث لا يوجد اختلاط ، وتقرر إقامتها فى بيت خالها حيث يستطيع شخصياً الاطمئنان والإشراف عليها وكان خالها قد نقل إلى القاهرة

ولجأت الأم إلى تكرار توجيه النصائح والتعليمات التى يجب عليها اتباعها فى هذا الجو المنزلى الجديد ، مع زيادة التشديد فى ضرورة الالتزام بالسلوك المتزمت وعدم محاولة الاختلاط بالجنس الآخر

وكذلك لجأ والد أحمد يوجه إليه التعليمات الهامة فى هذا الصدد ونصحه باعتبار المنطقة التى فيها وفاء منطقة محرمة عليه

أصبحت وفاء تحت مسئولية خالها الذى كان لا يكف عن مراقبتها وملاحظتها وتزويدها بالنصائح المستمرة التى لا تنتهى ، ويحرم عليها زيارة صديقاتها ، والتعرف بمن يحيطون بهم . ويقيم حولها سياجاً من الحراسة والمراقبة حتى لا يختل التوازن ، لأنه كان يشعر أن وجودها فى منزله مسئولية فى رقبته وأمانة يجب عليه المحافظة عليها

كانت وفاء تقبـــل هذه الأوضاع القاسية راضية ، لأنها كانت تشعر أن لابد من التحمل كى تستطيع أن تكمل تعليمها الذى طالما كانت تحلم به وكانت تكبت عذابها فى نفسها وتتألم داخلياً ، وتبكى حين تخلو لنفسها من الحرمان الذى تعانيه من هذه القيود الخانقة

تعرفت وفاء منذ اللحظة الأولى لوجودها بكلية البنات بزميلتها هدى ومنذ بدأت المعرفة اتخذت وفاء من صديقتها مستشارة لها فى كل أمورها الخاصة ، وعندما روت لهدى علاقتها بأحمد ، وحبهما الجارف ، أبدت لها هدى ضيقها لأنهما فى منزل واحد ، ومع ذلك لا يعطيان لحبهما حقه فتجرأت وفاء وبدأت تفكر فى حبها لأحمد بصوت عال وبرغم الحظر المفروض عليهما بعدم الالتقاء منفردين ، فقد تبادلا الرسائل ، ثم اشتدت جرأتهما فشربا الشاى معاً فى أحد الأماكن العامة وبرغم ذلك التطور الذى تم فيما يتعلق بعلاقتهما الخاصة ، إلا أن أحمد ظل منطوياً على نفسه ، فعلى مائدة الشاى كان حديثه يدور حول البلد وأهل البلد أما وفاء فكانت أكثر جرأة منه ، وكانت تحاول أن تدفعه إلى أن يتكلم أكثر وبصراحة ، فكان لا يستطيع لأن القيود التى فرضت عليه منذ الصغر ، استمرت معه حتى الكبر كانت أقوى منه بكثير

وتجرأ الاثنان وقبلا دعوة « هدى » إلى حفلة عيد ميلادها وهناك رأيا كيف يتحدث المحبون بصراحة وكيف يرقصون معاً ، الأمر الذى دفع وفاء إلى أن تبدى رغبتها فى أن ترقص مع أحمد برغم أنهما لا يعرفان الرقص

كانت مشكلتهما الخاصة فى العودة واستقبال الأسرة لهما من أعقد ما مرّ بهما من أمور ورأت وفاء أن تقول الحقيقة ، ولكن خالها ثار وأرغى وأزبد وأخذ يقذفها بالشتائم المبرحة ، وبأنها أمانة فى رقبته ولابد أن تعود إلى أهلها كما أتت أما أحمد عندما وصل فقد اكتفى بسؤاله عن سبب تأخره ولم يحاول أحمد أن يتدخل لحسم الموقف وكان

يجب أن يكون رجلاً ليقف بجانبها ويمنع تنفيذ قرار عودتها إلى البلد ولكن شيئاً من هذا لم يحدث

عادت وفاء إلى بلدتها كسيرة الجناح لا تجد ما تدافع به عن نفسها كما لا تجد من يقف إلى جانبها كي تتم تعليمها لقد اتحدت إرادة والديها على ضرورة زواجها على الأقل ، لكى تنقطع الألسنة التى بدأت تتكلم عن « وفاء »

كان الزوج هو « مختار بك » أحد كبار موظفى التفتيش الذى يعمل به مع والدها ، وهو رجل مزواج لا يهتم فى حياته إلا بأمور ثلاثة الزواج والأكل بشراهة والترفيه بأى أسلوب وكانت وفاء بالنسبة له صفقة جديدة ، فهى جميلة صغيرة مثقفة يمكن أن تحقق له أمله فى الإنجاب وكان « مختار بك » بالنسبة لوفاء « قضاء وقدراً » ابتليت به ، لا تستطيع أن ترفض الزواج منه ، كما لا تستطيع بأى صورة من الصور الزواج من رجل آخر تريده هى – لقد قضى الأمر وتزوجت « مختار بك » ، وأصبحت قطعة أثاث لا رأى لها فى أى شىء فيه ، بل لا رأى لها فى نفسها كل ما كانت تحلم به إما أن تموت هى أو يموت هو فلا فراق بينهما بالطلاق على الإطلاق

وتمضى الأمور بالنسبة لوفاء ومختار بك ، وهى تذوى وتضمر ولا تجد لديها الجرأة حتى تجتر حبها القديم ومختار بك يأكل ويسمن ويحصل على أموال الناس بالباطل ، ويجرى وراء الترفيه بكل أسلوب إلى أن تحققت أمنيته وانتقل إلى القاهرة ، واشترى فيلا فى المعادى وتزوج سراً بالراقصة التى تعرف عليها فى ليلة زفافه بوفاء وراح يبحث عن ثانية وثالثة ورابعة

حتى ولو أدى الأمر إلى مطاردة « هدى » صديقة وفاء ، ومحاولة الاستيلاء عليها برغم أنها متزوجة ، وبرغم أنها صديقة وفاء زوجته

نجد أن سوء معاملة مختار بك لوفاء واكتشافها زواجه السرى من الراقصة ، وعودته يومياً مخموراً ورائحة الخمر تفوح من فمه جعلها تلح عليه فى يوم ما أن يطلقها فرفض وأخذ يضربها ضرباً مبرحاً واشتد العراك بينهما ، فأخذت تدافع عن نفسها فقذفته بزجاجة فوقع على الأرض فاقد الإدراك فنقل إلى المستشفى وظهر أنه لم يمت بل جرح فقط وقد أصيبت وفاء بحالة انهيار عصبى شديد ونقلها جيرانها إلى منزل صديقتها هدى بعد نقل زوجها إلى المستشفى

مكثت وفاء طرف صديقتها التى حاولت بطرق متعددة مساعدتها فى العلاج من الأدوار التى كانت تنتابها ؛ إذ كانت تصاب بحالات إغماء عنيفة وأحياناً بصراخ وبكاء نتيجة إحساسها بدوارٍ شديد يصيبها بعنف يكاد يفقدها عقلها ، يصاحب ذلك صداع قاتل يستمر معها ساعات كانت تلك الأعراض تدفعها إلى الصراخ ، والصراخ الشديد ، حتى أن من حولها كانوا يظنون أنها أصيبت بجنون مما اضطر صديقتها هدى فى النهاية إلى عرضها علىّ للفحص الطبى النفسى والمشورة فى العلاج وكذلك أرسلت لوالديها بالحضور لتفقد حالتها

حين التقيت بوفاء لأول مرة كانت نحيفة الجسم ، ضئيلة الحجم ، ضعيفة البنية بشكل واضح كانت شاحبة الوجه ، ذابلة العينين يبدو فى ملامحها الحزن والكآبة ، والدموع فى عينيها تنساب بصورة مستمرة لم ترغب فى الحديث مبدئياً ولكنها بدأت تبوح بما فى نفسها تدريجياً

وأخذت أنفث فى عقلها الباطن لأصل إلى العوامل التى أدت بها إلى حد الاضطراب النفسى .

قبلت وفاء عن طيب خاطر أن أقوم بعلاجها ، ولم تتخل ولو مرة واحدة ، عن مواعيد الجلسات التى أقررها لها وهذا فى حد ذاته عامل يساعد على نجاح العلاج النفسى

وأخذت تقص علىّ تاريخ حياتها الحافل بالمآسى والحرمان من الحب والحياة والعلم ، ومن كل ملذات الدنيا ، وكراهيتها الشديدة للرجال بكل أنواعهم ورغبتها الملحة فى الطلاق وعدم قدرتها على عودة الحياة ثانية مع هذا الزوج المتوحش المستهتر الذى لا يعرف القيم ولا يقيم لها وزناً حياته كحياة الحيوانات التى لا تقدر الأمور ولا العواقب ولا تعرف المشاعر

استمر علاجها فترة طويلة ، قابلت فى خلالها والديها عدة مرات وأوضحت لهما خطأهما فى طريقة تنشئتها وفى طريقة زواجها ، وحرصت على ضرورة توجيههما إلى الأسلوب الصحيح لإعادتها لحالتها النفسية الطبيعية وضرورة طلب طلاقها من زوجها الذى وافق على ذلك كى يستطيع أن ينطلق إلى غيرها من النساء دون قيود أو مشاكل

تم شفاؤها وعادت إلى اتزانها النفسى ، وأخذت تكمل تعليمها إلى أن تخرجت وحصلت على المؤهل العالى والتحقت بعمل مشرف أعاد إليها حياتها وكيانها وكرامتها بعد أن شعرت أنها فقدتها فكانت هذه بداية حياة جديدة لوفاء التى عاشت ربع قرن من عمرها بلا حياة

التحليل النفسى للحالة

إن الشخص الذى تتاح له فى صغره فرصة الاستمتاع بالحياة الاجتماعية السليمة وتهيأ له أسباب الاختلاط بالناس وعقد الصداقات مثل هذا الشخص من المستحيل تقريباً أن يصاب بالاضطراب النفسى أو العقلى حتى لو كان تعساً فى أسرته

فوجوده خارج البيت بين أقرانه ، ومشاركته لأبناء جيله فى ممارسة الأنشطة المختلفة يزوده بالطمأنينة النفسية التى قد يفتقدها فى بيته ويعوضه خسارته فى أسرته الصغيرة بالكسب العظيم الذى يجنيه مع أسرة المجتمع الكبيرة

وهذا كان يخالف الحياة التى عاشتها وفاء ، إذ حرمت من كل ملذات الطفولة التى تتفق وسنها فى المراحل المختلفة ، وكانت تعيش حياة يتخللها التزمت المبالغ فيه ، والقيود التى شلتها عن الحركة وعن الانطلاق الاجتماعى ، وكانت محاطة بالمحظورات فى كل خطوة من خطواتها حتى بعد وصولها إلى القاهرة للدراسة أحيطت بنفس سياج الرقابة من خالها فلم يعد لها منفذ لتتنسم فيه الحرية ، الأمر الذى أدى بها فى النهاية إلى الإحساس بالذلة والنقص بعد حادثة رجوعها متأخرة ليلا وعودتها إلى أهلها بالريف ، مما أدى فى النهاية إلى قبولها الزواج بالشخص الذى فرض عليها دون أن يكون لها الحق فى إبداء رأيها فى قبوله أو رفضه

وكان من تأثير عدم توفر العلاقة الطيبة بينها وبين أمها أنها لا تستطيع أن تواجه أمها بمشاعرها وتصرح لها بما يجول فى خاطرها

لأن الأم كانت دائمة النقد اللاذع لها تحذرها وتنصحها بأسلوب قاس ليس فيه التفاهم الذى.دا توفر لساعد على فتح قلبها لأمها ، ومصارحتها بمـا يكمن فى نفسها لكن وفاء تشعر أنها غريبة فى المنزل وغير مرغوب فيها ، ولذلك أسرعوا فى زواجها للتخلص من هذه الحياة

كانت تكره الرجال وتحقد عليهم ، وذلك لأنها تعرضت لصدمات عنيفة تلقتها منهم وهى لم تزل فى فجر حياتها

فالصدمة **الأولى** تخلى والدها عنها وموافقته على أن تعيش حياة متزمتة خالية من نسيم الحرية بعيدة عن التطور العصرى ، وكذلك عدم وقوفه بجانبها ومعاونتها على تكملة تعليمها بعد عودتها من القاهرة .

والصدمة **الثانية** قسوة خالها عليها ومبالغته فى مراقبتها وتقييدها ومهاجمته لها أخيراً بعد الحادث الأخير ومبادرته وتصميمه على إرسالها إلى بلدتها لعدم قدرته على تحمل سلوكها المشين ورجوعها متأخرة ليلا

والصدمة **الثالثة** جبن ابن خالها وعدم إثبات رجولته وتخليه عنها وعدم مساندته إياها فى وقت محنتها ، بل ترك الأمور تسير فى طريقها ضدها

والصدمة **الرابعة** سوء معاملة زوجها لها واستهتاره بمشاعرها وتجاهله إياها ، وانغماسه فى ملذاته من خمر ونساء ، ومصاحبة الغانيات بدون حدود وملاحقته لصديقتها هدى ، وبزواجه من الراقصة دون أن يقيم لها ولحياته الزوجية وزناً مما أدى فى النهاية إلى الانفجار العنيف بينها وبينه والذى أدى فى النهاية إلى إصابتها بالاضطراب النفسى الذى كاد أن يؤدى بها إلى الجنون لولا المبادرة فى العلاج .

ويمكن تلخيص الأخطاء التربوية التى ارتكبت فى حقها فيما يلى

١ – عدم فهم الوالدين لحاجات وفاء النفسية فى كل مرحلة من مراحل حياتها وعدم تبصرهم بأصول التربية ، فأحاطاها بالقيود الصارمة وحرماها من نسيم الحرية الذى يساعدها على النمو الاجتماعى والنفسى السليم

٢ – عدم تفاهم أمها معها ومشاركتها أحاسيسها ، بل مبالغتها فى نقدها وإحاطتها بالمحظورات مما أدى فى النهاية إلى الانفجار نتيجة الكبت المستمر

٣ – تخلى والدها عنها وعدم محاولته مساعدتها على تكملة تعليمها ورغبته فى التخلص منها والإسراع بزواجها من إنسان غير مناسب من كل النواحى

٤ – إلزامها بالزواج من شخص فرض عليها على الرغم من أنه غير مستقر وغير متزن ومزواج سيئ السلوك مستهتر ، دون أن يتركا لها حرية الاختيار أو إبداء الرأى فكان الثمن أنها ذاقت معه العذاب ألواناً ، وعاشت معه حياة فيها المرارة والألم والحرمان ، مما أدى فى النهاية إلى إصابتها بالمرض النفسى الذى كاد يؤدى بها إلى المرض العقلى

مما سبق نرى أنه إذا أردنا أن يعيش أبناؤنا سعداء يُحِبون ويُحَبون ينبغى أن نتيح لهم حياة هانئة فى طفولتهم ، وفهم حاجاتهم النفسية فى مراهقتهم ، وإتاحة الفرص لهم للاختلاط فى حياة اجتماعية مناسبة لهم ، حيث يلتقون بأبناء جيلهم ويكتسبون من صداقتهم لهم الشعور بإنسانيتهم وذلك لأن مركب النقص يبدأ أولا نتيجة الأخطاء التربوية

التى كثيراً ما يرتكبها الكبار عن غير قصد ، والعادة أن يأتى مصحوباً بمركب الذنب الذى يترتب عليه أن يصابوا بالخجل والشعور بالقلة والتفاهة فيرتبكوا فى تصرفاتهم ويعتقدوا أنهم غير مرغوب فيهم اجتماعياً ويصابوا فى النهاية بالاضطراب النفسى

كيف تخلصت « منى » من داء السرقة

جاءتنى والدة تلميذة بإحدى المدارس الثانوية تشكو من أن « ابنتها تكرر رسوبها فى السنة الثانية ، وارتكبت عدداً من السرقات ، وكان اتجاهها أن تسرق كتب زميلاتها وأدواتهن ، كما تكرر هروبها من المدرسة » .

كانت التلميذة ابنة لرجل دخله الشهرى بسيط لا يكاد يسد حاجات الأسرة الضرورية ، ويعيش فى جهة بعيدة عن المدرسة ، بحيث تضطر الفتاة « منى » إلى المشى مسافة طويلة لركوب الترام ، والفتاة هى الإبنة الكبرى ، ولم يرزق والدها من بعدها بغير ابن واحد . ولم يقطع هذا الرجل من التعليم إلا مرحلة التعليم الابتدائى ، وكانت نفسه تشتاق إلى أن يتم تعليمه ، وازداد شغفه بالتعليم حتى أنه كان يقوم بتعليم زوجته الأمية ، كما كان يعلم أولاده بنفسه ، ويشرف عليهم إشرافاً شديداً يتخلله الضرب الشديد والقسوة والإيذاء

وكان دخل الوالد عندما أنجب ابنته هذه فى مستوى أعلى من دخله الحالى بدرجة كبيرة . وكانت الفتاة مدللة تجاب كل مطالبها

ذهبت الفتاة بعد إنخفاض دخل الأسرة وزيادة مسئوليات والدها العائلية إلى المدرسة محرومة من تلبية رغباتها ، غير مدربة على مقاومة نفسها ، يضاف إلى هذا أن انخفاض دخل الوالد كان السبب فى حنقه وقسوته على أبنائه

قضت الفتاة المرحلة الابتدائية والإعدادية فى مدرسة قريبة من المنزل ، ثم انتقلت إلى مرحلة التعليم الثانوى وفيها هبط مستواها بالنسبة لغيرها من التلميذات ، وربما كان سبب هذا الهبوط عدم ملاءمة ظروفها المنزلية لأداء واجباتها ، واضطراب حالتها النفسية نتيجة لقسوة معاملة والدها لها

كانت هذه الفتاة متوسطة الذكاء ، وكانت معاملة والدها لها تختلف كل الاختلاف عما يجب نحو شابة فى سن المراهقة . فكانت الأم تقسو فى معاملتها وتمنعها من الخروج إلا إلى المدرسة . وكانت فى بعض الأحيان تقوم بضربها حين تعصى لها أمراً . وازداد توتر العلاقة بين الفتاة ووالديها وبالإضافة إلى ذلك كان جو المدرسة خالياً من العمل المشوق ، وليس به نوع من الاتصالات الاجتماعية الصالحة بين الطالبات ، أو بينهن وبين المدرسات ، فلا عطف ولا فهم ، ولا تقدير ولا توجيه ولا نجاح ، وازدادت شكوى المدرسة من « منى » لسوء سلوكها وارتكابها السرقة مرات متكررة غير مبالية بأى نوع من العقاب أو التهديد أو الوعيد فى المدرسة والمنزل ، مما أدى إلى ضرورة طلب الاستشارة الطبية النفسية لعلاجها

استمرت « منى » تتردد علىّ لعلاجها عدة أشهر أمكننى من خلال الجلسات النفسية أن أكتشف الدوافع التى كانت كامنة وراء انحراف سلوكها ، وفى نفس الوقت استطعت أن أتبين بعض المواهب التى كانت تتمتع بها دون أن تعلم فبدأت فى تقويم سلوكها ، وإعادة الثقة إلى نفسها ، وتنمية مواهبها ، وتشجيعها على الانتظام فى الدراسة مما أدى إلى توقفها عن السرقة وتفوقها فى الدراسة ، واقتناعها بأهمية المواظبة على الذهاب إلى المدرسة

بالإضافة إلى ذلك ، فقد لجأت إلى توجيه الوالدين إلى الأسس التربوية الصحيحة فى طريقة معاملتها لابنتهما فى المواقف المختلفة مع إغداق الحب والعطف والتشجيع والفهم فى هذه المرحلة الدقيقة من حياتها . ومما ساعد على نجاح العلاج تعاون الوالدين فى سبيل تحقيق الشفاء لها — — وقد حرصت على إعطائها بعض الأدوية المهدئة التى يمكن أن تساعدها على التحكم فى انفعالاتها وتكيفها مع مجتمعيها المنزل والمدرسة

التحليل النفسى

نشأت « منى » فى بدء حياتها فى بيئة ميسورة الحال نسبياً ، تجاب مطالبها دون تأخير فحين ذهبت إلى المدرسة الثانوية وشعرت بالحرمان بسبب انخفاض دخل الوالد أدى ذلك إلى حرمانها من الكثير مما كانت تتمتع به فى المرحلة السابقة ، وأصبحت غير قادرة على مقاومة رغباتها وكذلك انخفاض دخل الوالد وزيادة الشكوى منها فى المدرسة لسوء

سلوكها وتكرار حوادث السرقة ، كان السبب فى ضيق الوالد بها والقسوة عليها ولاسيما عند ملاحظته إياها فى الدراسة

فإحساس « منى » بالحرمان الشديد من الحب والعطف والحنان ، يضاف إلى ذلك المعاملة التى كانت تلاقيها فى المنزل والمدرسة ، كل هذه العوامل دفعتها إلى كراهية الأسرة ، والهروب من المدرسة وعدم الانتظام بها

ومن الملاحظ أيضاً أن « منى » حين لم تشعر بقيمتها فى المنزل وفى المدرسة من الناحية العلمية والاجتماعية ، اندفعت لتسرق ، وربما لجأت إلى السرقة كى تحقق مجموعة رغبات فى وقت واحد فهى تسرق الكتب من زميلاتها انتقاماً للناحية التى كانت تود أن تتفوق فيها وفى الناحية العلمية وتبيع هذه الكتب لتشترى بثمنها بعض الملابس المثيرة ، ولتذهب إلى الخيالة مثل زميلاتها اللاتى ينتمين إلى عائلات غنية ، كى تعوض الحرمان الذى تعانيه حالياً ولا تستطيع مقاومته

الأخطاء التربوية

وتتلخص هذه الأخطاء فيما يلى

١ - تدليل الأسرة للفتاة فى المرحلة الإبتدائية والإعدادية فى الوقت الذى كان فيه دخل الوالد متيسراً ، وذلك بإجابة طلباتها وعدم إعطائها الفرصة للاعتماد على نفسها وتحمل بعض الحرمان ، لأن كثيراً من حاجات الطفل ورغباته تتعارض مع الأوضاع والقيود الاجتماعية فيما بعد ولابد للطفل أن يتعلم تدريجياً كيف يحد منها بالتنازل أو بالتأجيل

أو بالتعديل كى يعيش وفقاً للواقع هذه القيود التى تفرض على رغبات الطفل وسلوكه لازمة لتنظيمه ، وهى الدعائم الأساسية فى عملية التربية ، ولكن نجاحها دون أن تنال من صحته النفسية يتوقف إلى حد كبير على حسن تطبيقها من حيث اختيار الوقت المناسب والطريقة الملائمة

٢ – سوء معاملة الوالد لمنى والقسوة عليها ولاسيما أثناء قيامه بتعليمها ، أدى إلى عدم الاستماع إلى أى توجيه من ناحية ، وكراهيتها للدراسة والمدرسة مما دفعها إلى الهروب منها وعدم الانتظام بها من ناحية أخرى

٣ – عدم تقدير الوالدين للانفعالات المختلفة التى كانت تتعرض لها ابنتهما فى هذه المرحلة « المراهقة » التى كانت تمر بها وقتئذ من حيث المعاملة وحرمانها من العطف والتقدير والتوجيه السليم المتفهم لحاجاتهم النفسية

٤ – عدم محاولة الوالدين نقلها إلى مدرسة قريبة من المنزل ، وذلك لتخفيف المجهود الشاق الذى تبذله للوصول إلى المدرسة ، مما يؤدى إلى اضطرابها نفسياً وجسمياً ، وتفضيلها فى بعض الأحيان عدم الذهاب إليها وتوفير ذلك المجهود المضنى

٥ – عدم محاولة المدرسة فهم الدوافع النفسية الكامنة وراء اتجاه الفتاة نحو السرقة ، فإن المدرسة لو أعطت هذه التلميذة فرصة النجاح فى أى عمل ذى قيمة لشعرت بالرضا من نفسها ، ولم تتجه إلى السرقة ، فلكل تلميذ نواح طيبة يمكن كشفها وإبرازها بحيث ينجح فيها ويشعر بقيمة نفسه أمام إخوانه

٦ – يضاف إلى ما سبق أن البيئة الأسرية التى عاشت فيها منى ،

كانت غير ملائمة لتنشئتها تنشئة نفسية سليمة ، بين والدين غير متفاهمين وغير قادرين على إغداق الحب عليها ، فشعرت بحرمان شديد أدى بها إلى الانحراف

بذلك يمكننا أن ندرك من هذه الحالة أهمية فهم حاجات الطفل النفسية فى كل مرحلة لأن هذا الفهم يقوم بمهمة وقائية ، فهو يحول دون تحول الانحراف إلى اضطراب

فالتنشئة النفسية الصحيحة للطفل أصبحت اليوم ضرورة جوهرية لا سبيل إلى الاستغناء عنها أو التساهل فيها إذا شئنا أن ننهض بواجبنا نهوضاً سليماً وكاملا إزاء الطفل وإزاء الوطن على حد سواء ، أى إذا شئنا أن نعد طفل اليوم لتحمل تبعات الغد مع القدرة على أن ينعم بحياته معاً

فقدت الحب فأصابها الاضطراب النفسى

كانت فى الخامسة عشرة من عمرها ، يتيمة الأبوين ، يعولها خالها وزوجته ، وهذا الخال من صغار التجار

وقد جاءتنى زوجة الخال ، وهى امرأة فى الثلاثين من عمرها ، تبدو عليها مظاهر الاتزان والجمال والاحترام فلم تترك هذه السيدة فى نفسى فكرة قاتمة عنها وشكت لى زوجة الخال من الفتاة فقالت

« إنها فتاة صحتها الجسمية جيدة ، موفورة العافية ، ومع ذلك

لا تقوم بشيء من أعمال البيت ، وتثير الشغب والإزعاج والفوضى فهي لا تبدى عرفاناً بالجميل لما يبذله خالها وما أقدم عليه من أجلها من تضحيات إنها فتاة شديدة العناد ، كثيرة المكر ، لا يوثق بها ، ولا يعتمد عليها ، يغلب عليها الشرود والسهو ، حتى أنني لا أطمئن على طفلي البالغ من العمر ثلاث سنوات وهو معها ، خشية أن ينزل به مكروه ، وهي غافلة عنه »

وبدراستي للحالة تبين ما يلي

كانت الفتاة تتمتع بطفولة ناعمة مع الوالدين يحيطانها بالعطف والحب والحنان ، والد الفتاة كانت حالته المالية ميسورة نوعاً ، وكان يقيم في إحدى القرى ، إلا أنه كان يدمن الخمر ومريضاً بالسل وكانت الفتاة في حياة والديها موضع رعاية وحب لا حدود لهما

وفي ذات يوم كانت الفتاة وحدها بالبيت ، وكان والدها في المرحلة الأخيرة من مراحل مرض الدرن ، وطلب منها أن تأتيه بكوب ماء وجاءته بالكوب فتجرعه ، ثم سعل وشرق ، ولم يلبث أن سقط على سريره ميتاً وصاحت الفتاة مستغيثة ، ولكن أحداً لم يسمع استغاثتها ولم يخف لنجدتها ومع ذلك لم تجسر على الهرب من البيت حتى لا تتركه وحيداً . واضطرت للبقاء معه تحدق فيه مرتاعة وهو ميت ، إلى أن حضرت أمها من الخارج هذه هي حادثة وفاة أبيها .

ولما مات الوالد فقدت الفتاة الحياة الهادئة المستقرة ، وبدأ الاضطراب يسود حياتها وحياة والدتها ، وأصبح كل شيء قاتماً أسود أمامها . وكانت الأم سيئة التصرف صفت متروكات زوجها ، وكانت امرأة قليلة

الخبرة ، فأدركت بعد التصفية والبيع مباشرة أنها غُبنت ، فحاولت أن ترجع فى البيع ولكن دون جدوى وأدت هذه الصفقة الخاسرة إلى تدهور الحالة المالية ، وشعرت الفتاة بالحرمان والمعاناة نتيجة هذه الظروف التى كانت تحيط بها

وبعد نصف عام تقريباً ، عند عودة الفتاة ذات يوم إلى المنزل وجدت أمها مدلاة من قضبان النافذة والحبل يحيط بعنقها ، لقد انتحرت نتيجة إصابتها بالاضطراب النفسى بعد وفاة زوجها ، وسوء الظروف من حولها حتى أن الحياة فى نظرها أصبحت لا تستحق أن تحياها نتيجة للاكتئاب الذى حل بها أخيراً

انتقلت الفتاة بعد وفاة والدتها إلى منزل خالها الذى تولى رقابتها بعد وفاة والديها وكانت زوجته غير راضية عن قدومها ، فكانت تسئ إليها ، وتقسو فى معاملتها ، ولم ترع الحالة النفسية التى كانت فيها الفتاة نتيجة الصدمات المتتالية التى مرت بها

كان الخال رجلا حازماً يحكم أهل بيته بدكتاتورية لا تقبل المراجعة الكلمة دائماً كلمته والويل لمن يناقش حقه فى فرض إرادتــه ، لأنه كان يعتقد أنه أقوى وأعقل وأبعد نظراً من جميع الناس كرامته الشامخة كالجبل الأشم لا تقبل غلطة أو الرجوع فى رأى أو أن ينزل إلى مدارك الاعتذار من مجرد مناقشة كلمة أو أمر يصدره أو رغبة يبديها

كان هذا الخال الطاغى المستبد لا يستطيع أن يعوض الفتاة عن الحب والحنان ، فكانت تشعر بالحرمان والألم والمعاناة النفسية لإحساسها

بالوحدة وافتقادها والديها

وكثيراً ما كانت زوجة خال الفتاة تغادر البيت بعد الظهر ، وتترك لها مهمة تنظيفه وحدها فتنتهز الفتاة فرصة هذه المذلة وتمضى إلى حجرة قليلة الضوء وتستلقى فوق الأريكة وتطلق العنان لخيالاتها وأحلام يقظتها . وعندما تستولى عليها هذه الحالة من الشرود ، لا يسعها أن تعى شيئاً آخر مما يجرى حولها ، حتى أن زوجة خالها عندما عادت من الخارج ذات مرة ظلت تطرق الباب بكل قوتها نصف ساعة تقريباً دون أن تسمعها الفتاة ولما سمعتها أخيرًا دخلت السيدة وهى تكاد تنشق من الغيظ وجعلت ترمى الفتاة بالمكر والخبث ورفضت أن تصدق أنها لم تسمعها وبطبيعة الحال لا يمكن أن تطمئن الفتاة إلى زوجة خالها ولا أن تفضى إليها بأحلام يقظتها كانت تعتذر للسيدة كلما شردت بأعذار وهمية غير معتدلة تزيد من إقناع زوجة الخال بأن الفتاة خبيثة ماكرة ناكرة للجميل ، عنيدة .

وحرصت الفتاة أن توضح لى أن الأفكار التى تنهال عليها فى أحلام يقظتها ، ولا تريد أن تتخلص منها ليست على الدوام أفكاراً محزنة أو مخيفة ، بل فى كثير من الأحيان يكون لها طابع سار . وذلك عندما تحملها الذكريات إلى أيام طفولتها السعيدة

وهذه الذكريات الطفلية واضحة كل الوضوح . ويمكن أن تسيطر على ذهنها ، فى أى وقت أثناء قيامها بعمل ، أو أثناء مداعبتها لابن خالها بل وربما أثناء سيرها فى الشارع ، وأكثر ما يكون ذلك وهى سائرة فى الطريق صباحاً أو وهى نائمة بالليل فقد رأت ذات ليلة حلماً من الأحلام

المتعلقة بماضيها فى بيت أبويها وهو كثير الحدوث فى معظم الليالى . . وكانت هذه الحالة من الشرود وأحلام اليقظة لا تستولى عليها أثناء وجودها فى المدرسة

وهى تكره أعمال البيت بل وتكره مداعبة ابن خالها الطفل ، وتشعر عند مداعبته بضيق شديد لأن زوجة خالها كانت تزجرها دائمًا عند أول بادرة تذمر من ابنها

ومهما حدث للفتاة من متاعب ، فإنها لا تشكو حالها إلى زوجة خالها ، لأن نتيجة الشكوى دائماً هى غضب زوجة الخال التى تصب عليها الشتائم والنعوت القبيحة ، مثل الغباء والعناد والحقارة .

وقد حصلت على تقرير من المدرسة ومنه ظهر بوضوح أن مسلك الفتاة فى المدرسة يختلف تماماً عن مسلكها فى البيت ، فمعلمة الفصل تصفها فى التقرير بصفات النشاط والذكاء واليقظة وحسن الإصغاء ، والاعتماد على النفس والأمانة فى العمل ، علاقتها بزميلاتها فيها المرح والتهذيب وعندما عرفن منها أنها تعانى من سوء المعاملة فى بيت خالها نقلن ذلك إلى المعلمة ، وعلى هذا الأساس أرسلت المدرسة التقرير موضحة فيه كل ما سبق ذكره

وقد تبين أيضاً اعتراف الفتاة نفسها بطريقة غير مباشرة بأن سلوكها فى البيت غير اجتماعى ، فهى دائماً تبدو لمن لا يعرف حقيقتها شاردة مشاغبة عنيدة كسولا . . فى حين أن سلوكها فى المدرسة لا غبار عليه إطلاقاً

التحليل النفسى

يلاحظ فى الحالة السابقة أن الفتاة كان انحرافها الكامن لا يظهر إلا فى البيت ، أما فى المدرسة فلا لأن الصدمة التى حدثت للفتاة بموت أبويها لا تظهر أعراضها إلا فى إطار معين هو البيت . .

وبإعادة النظر فى حالتها تبين أن الذكريات المؤلمة التى تراودها تسبب لها أحياناً عذاباً شديداً أما أحلام اليقظة واسترجاع الذكريات السارة فكانت تشعرها بلذة عظيمة

وأحلام اليقظة شىء مألوف وكلنا نجربه فى بعض الأوقات وكل واحد منا إذا اشتد سخطه على ظروفه الواقعية يهرب منها إلى عالم الأحلام ، وهو يعبر عنه فى التحليل النفسى بأننا نسحب جانباً من طاقتنا الحيوية من عالم الواقع فيزيد ذلك من قوة الأوهام والتخيلات ، ويجسم أهميتها وهى عملية طبيعية لا غبار عليها بشرط أن تظل علاقتنا بالعالم الخارجى من حولنا مستقرة

أما إذا كان الجانب المسحوب من طاقتنا الحيوية المخصصة بعالم الواقع ضخماً للغاية فلابد فى هذه الحالة من أن يختل ميزان علاقتنا بالواقع ، ويصبح تكيفنا معه أمراً شاقًّا عن المعتاد

والمفروض أن الشخص الذى يستطيع أن يطرد التخيلات اللذيذة التى تستولى على ذهنه متى دعاه نداء الواجب للقيام بأعماله العادية ، يطوى أحلام اليقظة جانباً ويتركها إلى وقت ساعة النزهة أى عندما يأوى إلى فراشه لينام

إلا أن من الناس من يلجأ إلى أحلام اليقظة مكرهاً ، لأن الحياة الواقعية صارت مثار آلام شديدة له . . يعجز عن احتمالها . ومتى هرب إلى أحلام اليقظة فقد لا يتيسر له التخلص من سلطانها ويفقد بالتالى كل اهتمام بالحياة الواقعية العادية ، بعد أن تجمع اهتمامه كله فى عالم الأحلام والأوهام . وهذا ما يعتبر « حالة مرضية » كما هو الشأن فى الحالة التى ذكرتها

فالفتاة لم تستطع التغلب على الصدمة ، فهى لم تستطع أن تنسى تمام النسيان الكوارث المؤلمة التى نزلت بها ولذا كانت هذه الكوارث تبرز إلى مستوى القدر على شكل ذكريات أليمة مثيرة للانقباض والفزع وفى الوقت نفسه جاء تغيير البيت بعامل جديد ، إذ أبعدت عن الجو المألوف لها العزيز عليها فكانت تحاول تعويض هذا الحرمان عن طريق أحلام اليقظة

وكانت الفتاة كلما شعرت بالارتياح فى عالم الواقع وأملها أن ترتبط بصلات الصداقة الودية لم تجد فى نفسها حاجة إلى الأوهام التى تبعدها عن ذلك الواقع اللطيف ، وهذا تماماً هو حالها فى المدرسة أما فى البيت فلا تستطيع أن تشبع رغبتها فى الصداقة والطمأنينة والارتياح ، فضلاً عن أنها تشعر فى بيت خالها بأنها عالة على الرجل وزوجته وأنهما يتحملانها على مضض . وهى التى كانت معززة مكرمة محبوبة فى بيت أبويها ولا تطيق أن تصور نفسها شبه خادم ، تقوم برعاية الطفل الصغير وتنظف البيت ، وإلا رميت بالجحود من زوجة خال لا تفهم همومها ، ولا تدرك آلامها ، ولا تعطف عليها . وفى هذا الإطار تهرب من الواقع فتشبع كل رغباتها المكتومة فى عالم الأوهام

عوامل الاضطراب

التدليل الزائد الذى كانت قد افتقدته بدأ ظهوره منذ طفولتها إذ كانت كل رغباتها مجابة مهما كانت ، وعدم إعطائها الفرص للاعتماد على نفسها وتحمل بعض الحرمان

الصدمات النفسية التى تعرضت لها فى طفولتها عند وفاة والدها العزيز عليها وهى بجانبه ، ثم المعاناة المادية والحرمان بعد وفاة الوالد وسوء تصرف الوالدة ، ثم وفاة والدتها بصورة أذهلتها وغرست الرعب والخوف داخلها

سوء معاملة زوجة الخال وعدم تقديرها لما كانت تعانيه نفسياً من الحرمان ، وتماديها فى القسوة عليها وإدخال الإحساس فى نفسها بأنها عالة عليهم ، وأنهم يتحملونها على مضض وهى التى كانت معززة مكرمة محبوبة فى بيت أبويها ، ومعاملتها كخادم تقوم بتنظيف البيت ورعاية الصغير .

العوامل السابقة أدت إلى هروبها من عالم الواقع إلى أحلام اليقظة فكانت على وشك الإصابة بعلة نفسية خطيرة لولا المبادرة بالعلاج النفسى .

وكان من المقومات الهامة التى لجأت إليها قبل البدء فى علاجها نفسياً أن أقنع زوجة الخال بضرورة حسن التفاهم مع الفتاة ، وتقدير حالتها المرضية ، لتغير اتجاهها نحوها ، وحتى يمكنها أن تنال حب الفتاة وطاعتها ومساعدتها فى أعمال المنزل ورعاية طفلها

واستمر علاج الفتاة ، وفى نفس الوقت وجهتُ زوجة الخال إلى

كيفية معاملة الفتاة ، وكانت فى أثناء الجلسات النفسية تتحدث عن فجائعها بإفاضة وانفعال فأدى ذلك إلى تخلصها تدريجياً من آثارها الباقية وفى الوقت نفسه ، مهدت للفتاة بواسطة إحدى زميلاتها عقد صداقات مع بنات من سنها بحيث تشعر معهن بالرضا والارتياح والسرور فلا تلجأ إلى أحلام اليقظة . وبالفعل لم يمر عام واحد حتى ظهر عليها تطور حسن جعلنا نطمئن عليها

وكانت زوجة الخال حين تلاحظ تغير سلوك الفتاة إلى الأحسن وتخلصها من مظاهر الانحراف فى السلوك الذى كانت تشكو منه يزداد تعاونها بحسن معاملتها للفتاة ، ومحاولة فهم حاجاتها النفسية وتلبيتها مما ساعد على نجاح العلاج النفسى

مما سبق ، ندرك أن هذه الفتاة لم تكن منحرفة السلوك ، وأن الصدمات النفسية التى تعرضت لها فى مختلف الظروف عرضتها للاضطراب النفسى ، ولما عاد إليها الحب والعطف اللذان افتقدتهما بدأ ظهور الاتزان النفسى وزالت أعراض الاضطراب

عادت إليها الحياة بعد فقدها

بعض الناس عاجزون عن هضم التجارب المؤلمة التى تحدث لهم ، إذا حدثت لهم بصورة مفاجئة وعنيفة ، بحيث يكون التكيف معها شيئاً فوق طاقاتهم

وعندما يكون للتجربة الانفعالية هذا التأثير الشديد الوطأة نسميها صدمة نفسية ، وهذه الصدمة قد تتمخض أحياناً فى ظروف معينة عن عصاب أو مرض نفسى شامل

وفيما يلى نوضح قصة تأثير الصدمة النفسية على سلوك الفرد

كان فى السابعة عشرة من عمره ماتت أمه فذهب ليعيش مع شقيقته وزوجها ، فأهملته أخته وشأنه ولم تهتم بأموره الشخصية والنفسية لانشغالها بمنزلها وأولادها وعملها فصار يقضى معظم وقته فى الأزقة والطرقات حتى صار فتى منحرفاً

وبعض الشكوى من انحرافه تتمثل فى حب التشرد وعدم الرغبة فى الالتحاق بأى نوع من الدراسة أوأى عمل ، مما أدى فى النهاية إلى تنبه أخته إلى انحراف سلوكه ، وجاءت به للعيادة للعلاج

كان « ماجد » برغم وسامته ومظهره الحسن خجولاً وبطئ الحركات متحفظاً ، مما يدل على أنه شديد السلبية دمث الخلق ولذلك فإن انحرافه ليس من النوع الذى يخشى منه على الناس وأنه من السهل إصلاحه

وبدراسة الحالة تبين ما يلى

كان يعيش مع والدين متحابين . كان هو الطفل الثانى ، حيث إنه كان له أخت تكبره بخمسة عشر عاماً ، إذ أنه جاء بعد أن مات له أربعة أخوة ذكوراً وإناثاً لم يرهم كان يسكن مع والديه وأخته فى شقة مكونة من غرفتين ، حيث إن حالة الأسرة المادية غير متيسرة . وكان الوالد يعمل عاملا فى مستشفى ، وكان يتقاضى أجراً بسيطاً يكاد يغطى مصاريف الأسرة الضرورية

كان ماجد قد اعتاد أن ينام فى السرير بين والديه وأخته كانت تنام على أريكة مقابلة

تزوجت أخته وهو فى الثانية عشرة من عمره ، ومن ذلك الوقت فقد ظل ينام بين والديه حسب رغبته ، ولم يمانع الوالدان فى ذلك حيث إنهما اعتادا أن يلبيا كل طلباته مهما كانت صعبة التحقيق

وفجأة مرض الوالد وتوفى فى المستشفى ، وكانت صدمة عنيفة على ماجد وبدأ يشعر بالمسئولية ، فتألم لحال أمه كثيراً لإحساسه بأنها وحيدة فأخذ يرعى شئونها ويخدمها ليحل محل والده كان ماجد متعلقاً بأمه تعلقاً شديداً وكان يحاول دائماً أن يساعدها فى كل ما تريد كى تعيش وتظل معه ترعاه وتؤنسه ، ولكن الأقدار لم تتركه على هذا الحال ، وبعد مرور ثلاث سنوات من وفاة والده توفيت الوالدة فى حادث مروع ، إذ كانت تعمل فى مصنع (فرمتها آلة المصنع فرماً) وجاءه إلى البيت من استدعاه وأخبره بأن أمه مغمى عليها فى المصنع فذهب إلى هناك مع أخته فأخبرتهما الإدارة بما حدث ، فسقط ماجد فاقد الوعى ، وبعدها ذهب مع أخته إلى البيت حيث ظلت ساهرة عليه طول الليل ، لأن حالته كانت سيئة جداً من فرط الرعب .
ولم تسمح له بتشييع الجنازة ، وحاول أن يبكى فامتنعت عليه الدموع ، فأخذ يتشاغل بلعبه التى كانت أمه تتعجب دائماً من براعته فيما يفعله بها

تم انتقال ماجد إلى بيت أخته بعد أن باع أثاث منزل أمه وتقاسما ثمنه ، وأبت أخته أن تتقاضى منه مقابلا لإقامته عندها ثم عمل صبى ميكانيكى شهرين ولكن لم يعجبه العمل فتركه .

كان دائماً يتذكر أمه ، وصورتها لم تفارق حياته وحادث الموت البشع يؤرقه ليلا حتى إنه كان يصرخ أحياناً أثناء نومه ويقوم فى حالة فزع شديد

كان ماجد أثناء العلاج بالجلسات النفسية حين يذكر حادث وفاة أمه يجهش بالبكاء الشديد وينتحب بعنف .

ثم التحق ماجد بعمل آخر فى فندق ، ولكن كان عمله ذبح الحيوانات ، فرفض هذه المهنة وتركها إلى التجارة ولكنه كان لا يحبها أيضاً . ولم يرض معلمه عن كسله فطرده . والتحق بعمل آخر ففشل فيه أيضاً . وكان لا يدرى لذلك سبباً ، على الرغم من أنه كان فى كل مرة يفصل فيها عن العمل يتألم تألماً شديداً

وصار يقضى وقته هائماً فى الطرقات متسكعاً بدون هدف ولا أمل ولا رجاء . وكان زوج أخته وولى أمره لا يكف عن مطالبته بالالتحاق بعمل وتعلم مهنة ، وكان يصاحب ذلك إهانة وسب وسوء معاملة ، وبث فيه الإحساس بأنه يعيش عالة عليهما. كانت هذه المعاملة تجعله يقضى النهار فى الطرقات ، ثم يعود إلى البيت فى المساء وأحياناً كان يقضى الليل هائماً ينام فى أى ركن من أركان الشارع حتى أنه كان يقبض عليه بتهمة التشرد . وأخيراً جاءت به أخته للمشورة الطبية النفسية والعلاج

لم يكن له أصدقاء إطلاقاً ، بل إنه لم يكوّن معى أيضاً صلة وثيقة على الرغم من طول مدة العلاج وكثرة اللقاء فى الجلسات النفسية ، وإن كان قد صار أكثر تبسطاً فى الحديث . وتدريجياً زال انقباضه ، وأصبح

أقل نسياناً وزاد اهتمامه والرغبة فى الالتحاق بالعمل ، فالتحق بعمل كتابى فى مدرسة كبيرة ، وانتظم فى هذا العمل ولم يظهر عليه بعدها أعراض الانحراف فقد زال الانحراف نهائيًا بانتظامه فى العلاج النفسى وبعض الأدوية المهدئة ، يضاف إلى ذلك توجيه أخته وزوجها عن كيفية معاملته حتى يستقيم أمره ويحقق العلاج النفسى النتيجة المرجوة ، فكانت استجابتهما لذلك من العوامل الهامة التى ساعدت على علاج ماجد واختفاء الانحراف فى سلوكه

التحليل النفسى للحالة

إن حالة ماجد توضح تأثير الصدمة النفسية عليه مما أدى إلى ظهور الأعراض النفسية فى صورة رفضه للعمل والتشرد اللذين يعتبران مظهرين للانحراف ، ويلاحظ أن هذه الأعراض لم تظهر عليه إلا بعد وفاة الأم بهذه الطريقة البشعة وبعد إقامته مع أخته وتعرضه لسوء المعاملة من زوجها ازدادت حالته تفاقماً بحيث أدى الأمر لضرورة الالتجاء للطب وطلب المشورة والعلاج الطبى والنفسى ، ومن المشاهد أيضاً أنه فوجئ بفجيعة أمه ، وأن المفاجأة كانت مؤلمة فوق قدرته على احتمالها حتى إنه فقد الوعى وأغمى عليه ثم قضى الليل فى فزع سهرت أخته عليه طول الليل . وانصرف إلى إحدى لعبه فى الوقت الذى كانت فيه أمه توارى التراب

وهذا كله ليس عادياً على الإطلاق ، أن يصدر من فتى كبير عمره يومئذ ١٤ سنة مع أنه لم يشاهد أمه فى تلك الحالة بل سمع فقط ما

حدث من أفواه رجال المصنع ونسائه وهو نفسه عبر عن هذه الصدمة بقوله « لم أستطع الانقطاع عن التفكير فيها فى أيه لحظة أو عن تخيل منظرها الفظيع بعد هذا الذى حدث لها »

ثم حدث أن كبت كل ماله صلة بهذا الحادث المؤلم ، ومن هذا الكبت مقاومته ضد استعادته لأن تلك الاستعادة تسبب له ألماً ممضاً فنتجت كل الالتواءات فى سلوكه ، وتفاقمت الانحرافات يوماً بعد يوم يجب ألا نغالى فى تجسيم أهمية التجربة المسببة للصدمة فنفس التجربة التى تحدث الصدمة عند فتى معين فيصير عصبياً (مريضاً نفسياً) لا يكون لها أثر تقريباً عند فتى آخر . ومهما يكن من شيء فالتشرد عند ماجد حل محل المرض النفسى ، وبهذا التشرد كان ينجو بنفسه من مرض الاكتئاب .

وأياً كان الأمر فإن موت الأم بهذه الصورة المؤلمة ما كان ليحدث هذا الأثر لو لم يكن الفتى متعلقاً جداً بأمه ومرتبطاً بها تمام الارتباط يضاف إلى ذلك أنه كان مرتبطاً بوالديه ينام فى فراشهما . وبعد أن أخلت أخته الأريكة التى كانت تنام عليها وذهبت إلى بيت زوجها لم يحل محلها على الأريكة بل ظل ينام بين أبويه مع أن عمره يومئذ كان ١٢ سنة . وبعد وفاة أبيه ظل ينام مع أمه ، ويعنى بها بدلا من أبيه ، كل هذا ينبئ بأن ماجدًا كان متقمصًا شخصية أبيه بصورة غير عادية ولذا كانت صلته بأمه غير عادية كان كأبيه تماماً . وليس معنى هذا طبعاً علاقة شائنة بل المراد منها علاقة أعمق من علاقة الأمومة العادية ، ولذا كان وقع موتها عليه يعنى أكثر من مجرد فقدان الأم

وإنى لا أمانع من أن اتجاه الطفل بمحبته نحو أفراد أسرته ولا سيما

الوالدين أمر ضرورى للنمو الانفعالى السليم ولكن من الطبيعى أيضاً أن تقل هذه العواطف العنيفة قرب المراهقة ويقل الارتباط بالوالدين وأفراد الأسرة قبل هذه المرحلة ، لأن مرحلة المراهقة هى وقت انتقال الحب من داخل الأسرة إلى خارج محيطها ومن الأم والأب والأخوة إلى أفراد من الجنس الآخر غرباء عن هذا المحيط القريب من الذات

ولذا نرى أنه فى حالة استمرار التعلق بأفراد الأسرة فى النمو وعدم توقف هذا النمو قبل المراهقة يتعرض الفتى المراهق بما يسمى « تثبيتا » على موضوعات حبه ولا يستطيع أن يتحول بحبه من أمه أو أبيه إلى شخص غريب عن الأسرة . المفروض أنه الزوجة ، وهذا التثبيت من الأصل الكامن فى بعض أنواع الأمراض النفسية ، وتكفى الظروف والمناسبات لجعله مرضاً نفسياً ظاهراً أو انحرافاً ساخراً ، وفى حالة ماجد كانت « الصدمة النفسية » بموت الأم فجأة هى هذه المناسبة السيئة

الأخطاء التربوية فى هذه الحالة :

١ – استجابة الوالدين لطلبات ماجد مهما كان تحقيقها صعباً ، ومن ذلك موافقتهما على نومه فى نفس فراشهما فى صورة مستمرة ، أدى ذلك إلى عدم إعطائه الفرصة للاعتماد على النفس وتحمل بعض الحرمان لأن كثيراً من رغبات الطفل تتعارض مع قيود المجتمع ، ولا بد للطفل أن يتعلم كيف يحد منها بالتنازل أو بالتأجيل أو بالتعديل ، فيعيش وفقاً للواقع ، فهذه القيود لازمة لتنظيم حياته

٢ – نوم ماجد بين والديه منذ طفولته واستمرار هذا الوضع حتى بعد

زواج أخته وخلو الأريكة التي كانت تنام عليها ، فالطفل فى نومه لديه القدرة على الإحساس بحقيقة مايدور حوله ، والعلاقات الجنسية تبدو لذهنه الغرير فى تلك المرحلة نوعاً من التهجم أو الاعتداء الصارخ ، الأمر الذى لا يوقظ الغرائز قبل أوانها فقط ، بل هو أيضاً يطبع العلاقات الجنسية فى نظر الصغير بطابع العنف والإجرام وهذا أدى إلى إحساس الطفل ماجد نحو أمه بأكثر من إحساس الأمومة وحزنه الشديد عليها عند سماعه خبر وفاتها ، مما أدى إلى إصابته بالصدمة النفسية ، ويضاف إلى هذا أن الانحراف الكامن الذى ولد فى نفسه نتيجة هذا الوضع الخاطئ بنومه بين والديه أصبح انحرافاً سافراً حين سمحت الظروف بذلك بعد وفاة أمه

٣ – عدم اهتمام أخته بشئونه بعد وفاة أمه بانشغالها بأولادها وشئونها أفقد ماجد عطف وحب أمه بعد وفاتها ، ولم يعوض عنه ولم يجد له بديلا ، فشعر بالوحدة التى ظهرت آثارها بوضوح فى مرحلة المراهقة فأصابه الإحساس بالقلق وعدم الاستقرار لحرمانه من حب أمه ، لأن هذا الحب هو عماد الحياة الإنسانية ، ومن الضرورى أن يتناول الإنسان منه جرعات مشبعة من بداية الحياة ، فإن الحرمان من الحب كثيراً ما يلوث النفس بالقسوة الحيوانية ، ويدفع المحروم منه إلى الانحراف فى السلوك

٤ – سوء معاملة ولى أمره (زوج أخته) واستمرار قذفه بالسب الموجع بالنفس لعدم توفيقه فى أى عمل وبث الإحساس فى نفسه بأنه يعيش عالة عليهم كان هذا التأديب أكثر من التأديب البدنى ، بل كان كالطعنات الجارحة ، فأدى ذلك إلى هروبه وقضاء الليل خارج المنزل مما ساعد على

تشرده وانحراف سلوكه

مما سبق نرى أن التجربة الانفعالية الشديدة الوطأة تحدث أحياناً ما يسمى بالصدمة النفسية ، وأن الصدمة النفسية تسبب اضطراباً شديداً فى العمليات النفسية هذا الاضطراب قد يؤدى إلى انحراف كامن تحوله المناسبات والظروف إلى انحراف سافر والطبيب النفسى هو الذى يستطيع أن يتعمق فى نفس مريضه وينقب فى لفائف العقل الباطن كى يستطيع الوصول إلى الجذور المترسبة فيه والتى كانت الأساس فى وجود الانحراف الكامن ، فيقوم بعلاجها وليس فقط القضاء على المظاهر السافرة فهى أشبه بانتزاع الحشائش الضارة لا مجرد اجتثائها من فوق سطح الأرض ، لأنها فى هذه الحالة ستعود للازدهار

حرمانها من الحب أدى إلى عصبيتها

كانت فى سن العاشرة الابنة الوحيدة لوالديها وقد حضرت مع والدتها لعلاجها من عدة أمراض منها تأخرها الدراسى واستمرارها فى مص أصابعها وقضم أظافرها ، يضاف إلى ذلك أنها عصبية تصرخ وتبكى لأتفه الأسباب وإذا غضبت فإنها تثور وتضرب نفسها ، وتخبط رأسها فى الحائط وترفس برجليها وهى تغضب فى أغلب المناسبات وتصفها والدتها بأنها مهملة فى ملابسها وغير منظمة فى قضاء حاجاتها المختلفة ، إذ قلما تضع شيئاً فى موضعه ، لا تميل إلى استذكار دروسها بمفردها تميل

إلى الرسم وقص الورق ، وتقضى فيهما كل أوقات فراغها ، ومع ذلك حسب تقدير والدتها فإنها لم ترسم مع كل هذا رسمًا مقبولا قط

وبدراسة الحالة تبين أن الفتاة كانت تعيش فى حياة أسرية مضطربة كانت الأم عصبية المزاج ، تصاب أحياناً بتشنجات هستيرية ، سريعة الانفعال لأتفه الأسباب ، كثيرة الشكوى من أمراض وهمية تؤدى إلى التردد على الأطباء دون جدوى وكانت شديدة قاسية فى أحيان كثيرة مع الفتاة ، وحين تخطئ فى أى عمل أو سلوك تقوم الأم بضربها ضرباً مبرحاً وقد ضربتها ضرباً قاسياً عندما اطلعت ذات مرة على نتيجة عملها بالمدرسة ، مما أدى بها إلى كراهيتها للمدرسة والدراسة ،فكانت أحياناً ترفض الذهاب إليها أو تلجأ إلى الهرب منها ، مما أدى إلى تأخرها الدراسى عن زملائها وبإجراء اختبارات الذكاء عليها اتضح أن ذكاءها فى مستوى ذكاء طفل متوسط عمره إحدى عشرة سنة . ومعنى ذلك أن لديها من المقدرة العقلية الطبيعية ما لا يبرر تخلفها ، بل بالعكس ، كان يُنتظر منها تفوق باهر

أما الوالد فكان ضعيفاً ليِّنًا لا يهتم بشكوى الوالدة من ابنتها ، ويخاف أن يجرح إحساسها ، ويصل خوفه إلى أن يتردد ويتلعثم فى أثناء حديثه معها ومع ذلك فقد كان يتدخل فى نشاطها كانت الفتاة مغرمة بتأليف القصص القصيرة ، فكان الوالد يرى أن هذا لا يتمشى مع المناهج التقليدية للمدرسة ، وفيه مضيعة للوقت ، فيمنعها بكل وسيلة من ممارسة هوايتها ، حتى أنه كان أحياناً يمزق ما تنتجه من كتابات أمامها حتى لا تعيد تكرار ذلك ثانية

يضاف إلى ذلك قلق الجميع على صحة الفتاة ، إذ أنها ضعيفة من صغرها ، ولعل من أسباب القلق عليها أن أخاها الذى يكبرها بأربع سنوات مات وهو فى سن السادسة

وقد أجمع جميع مدرسيها على أنها مشتتة الانتباه ، شاردة الذهن . وقد وصفتها إحدى المدرسات بأنها لا تستقر فى الفصل فهى تلتفت مرة ذات اليمين وأخرى ذات اليسار تتطلع إلى هذه وإلى تلك من زميلاتها وتعبث أثناء ذلك فيما أمامها من الأدوات فإذا لم تجد أمامها شيئاً تعبث به أخذت شيئاً من درجها أو درج جارتها لهذا الغرض وكانت دائماً تلجأ إلى مص أصابعها وأظافرها وتتمادى فى ذلك إذا لم تنبه إلى ذلك وهى قليلة الصبر على مواصلة عملها ولا تميل إلى إتقانه وحركاتها عصبية وقد ضربها والدها مرة عندما كثرت الشكوى منها وبعد أن ضربها تولاه الندم الظاهر ، ووصلت الحالة بالوالد أخيراً إلى أنه لا يمكنه ضربها إطلاقاً . ولكنه مع ذلك يوصى المدرسة دائماً بوجوب ضربها بشدة .

وهناك ظاهرة أخرى فى معاملة هذه الفتاة ، نفرد لها حادثة معينة تبين دلالتها ، وخلاصتها أنها قد إدخرت من نقودها مبلغاً من المال فاقترضه منها والدها ليستعين به فى سفره إلى جهة ما على أن يرده لها بعد عودته ولكنه لم يرده إليها ، وقد مضت عليه أربع سنوات وقد ظن الوالد أن الحادث تافه ، وأن على الطفلة أن تعلم أن كل ما يملكه الوالد فهو لها ولكن المهم عند الطفلة فى الواقع هو شعورها بالملكية وإشباع هذا الشعور حسياً . ولروح العدالة المتعلقة بحق الملكية أهمية كبرى فى إشباع الحاجة إلى الأمن

التحليل النفسى

هذه حالة طفلة فقدت السلطة الضابطة الحازمة فى المنزل ، السلطة المختلطة بالعطف والحب والحنان وفقدت الشعور بالأمن لشدة ما يحيط بها من القلق ، نتيجة سوء معاملتها بالمنزل من والديها ، وحرمانها من ممارسة هوايتها التى تعتبر وسيلة للتخفيف عما كانت تعانيه من توتر نفسى داخلى ويضاف إلى ذلك ما كانت تلاقيه من قسوة وضرب من المدرسة مما أدى إلى كراهيتها للمدرسة وعدم رغبتها فى المذاكرة وهربها إلى ممارسة هواية الرسم وتأليف القصص . وأخيراً كان ينقصها كثير من التمتع بالحرية ، إذ كان والداها يتدخلان فى كل صغيرة وكبيرة من شئونها ، وكانا ينزلان بها فى بعض الأحيان أشد ألوان العقاب إذا خالفت لهما أمراً ، أو لم تحصل على درجات مرضية فى الدراسة

وفيما يلى يمكن تلخيص أهم العوامل التى أدت إلى اضطرابها النفسى وعدم استقرارها

١ – عصبية الأم الشديدة وقسوتها فى معاملة الطفلة دون مراعاة لأى اعتبار آخر

٢ – عدم إتاحة الفرصة للطفلة للاعتماد على نفسها حتى فى البسيط من أمورها الخاصة ، وبهذا أصبحت الفتاة غير قادرة على الاستقلال فى خدمة نفسها ، شاعرة بالعجز

٣ – المعاملة المنزلية المتغيرة من جهة الوالدين ، وعدم تقديرهما لحاجتها النفسية فالوالدة شديدة قاسية ، كثيرة النقد للفتاة ، والوالد

ضعيف لين لا يهتم بشكوى الوالدة منها

٤ – شعور الفتاة بالشقاء فى المنزل والمدرسة أدى بها إلى هروبها أحياناً من المدرسة ، وكراهيتها للدراسة مما انتهى إلى تأخرها الدراسى

٥ – حرمان الطفلة من ممارسة هوايتها من رسم وتأليف قصص كان من أسباب إحساسها بالقلق وعدم الاستقرار

٦ – قلق الطفلة على نفسها وشعورها بالنقص لاهتمامهم بها من الناحية الصحية ، وقد أدى ذلك إلى ظهور العصبية الزائدة وعدم الاستقرار النفسى

كل هذه العوامل خلقت للطفلة جواً تشعر فيه بالتعاسة والشقاء .

إن الطفل فى حاجة إلى الحرية واللعب والحركة . وإلى السلطة الحازمة التى لا تعرف التردد أو الضعف . كما أنه فى حاجة إلى العطف والحب ، وأخيراً فإنه محتاج إلى النجاح والتقدير لمهاراته وكفاياته بأنواعها المتعددة .

وقد استمر علاجى لهذه الفتاة بتوجيه الوالدين إلى كيفية معاملة الطفلة حتى تهدأ وتستقر نفسيتها وتعاود دراستها بصورة مرضية ، وكذلك العمل على خلق جو أسرى هادئ يحيط بالطفلة فى المنزل ، تكون فيه المعاملة ثابتة يتوافر فيها العطف والحزم والعدالة والحرية وحسن التوجيه ويضاف إلى كل ذلك أنى عالجت الناحية الصحية فزال إحساس الطفلة بالنقص الذى كانت تشعر به

وأخيراً شفيت الفتاة من الأمراض السابقة ، وعادت إلى استقرارها النفسى ، وانتظمت فى دراستها حتى أنها أصبحت من المتفوقات فى الدراسة وأصبح الوالدان سعيدين لاطمئنانهما على مستقبل ابنتهما

فعلى كل أم ، لكى تحمى طفلها من الاضطراب النفسى والسلوك المنحرف والتأخر الدراسى أن تمنحه الحب الواعى المستنير. هذا النوع من الحب الذى يدرك ما يجول بفكر الطفل وما يصطدم فى شعوره وما يحرك سلوكه . ذلك الحب الذى يعرف حاجات الطفولة فيلبيها ويدرك ما لدى الطفل من قدرات وإمكانيات فيتعهدها بالرعاية ويتيح لها التفتح فى جو ملائم يسوده الاستقرار والهدوء .

تعثر طفل موهوب

جاءت إلى عيادتى امرأة فى الخامسة والثلاثين من العمر أنيقة على درجة متوسطة من الجمال ، وجلست أمامى وكان يبدو عليها الاكتئاب والقلق والمعاناة ، مضطربة ، وبادرتنى بقولها « جئت إليك يا دكتورة كى تساعدينى فى علاج ابنى الذى بلغ السابعة من العمر وهو غير متجاوب فى دراسته ، يهرب من المدرسة ، عنيد ، غير مطيع ، يميل إلى المشاكسة وإيذاء الآخرين ، لا يستمع إلى أى توجيه . لقد ضقت به ذرعاً ، حتى إن والده يقوم بضربه أحياناً ضرباً مبرحاً ولكن دون جدوى »

فقلت لها « أرجو أن تذكرى لى تاريخ حياة طفلك منذ الحمل به حتى وقتنا هذا ، مع ذكر الأحداث والظروف التى مر بها خلال هذه الفترة بالتفصيل » .

فقالت « إنه الطفل الثانى فى الترتيب بالنسبة لإخوته ، وقد سعدنا

لقدومه إلى أبعد حد حيث إننا كنا مشوقين إلى ولادة ابن لنا ، لأن الطفل الأول كان بنتاً كانت صحتى الجسمية والنفسية أثناء الحمل جيدة ، وولادته سهلة غير متعثرة ، وكانت طفولته طبيعية من ناحية النمو فى المشى والكلام إلخ حتى إنه فى بعض الأحيان كان يبدو عليه ذكاء أكبر من سنه ، إلا أن حالته الصحية كانت من الدقة بحيث تحتاج إلى ملاحظة دائمة وعناية خاصة فكان يلقى هذه العناية أثناء السنوات الأولى التى قضاها فى البيت مع أخته التى تكبره بعام واحد

ولما بلغ الرابعة من العمر ألحقناه بالفرقة الأولى بقسم الروضة فأظهر تقدماً مطرداً ، وفى نهاية العام نقل إلى الفرقة الثانية ، وكان خلال هذه الفترة يظهر شغفاً قوياً بالمدرسة ، وإقبالاً كبيراً مما أسعدنا ذلك كثيراً وشكرنا الله لتوفيقنا فى هذه الناحية ، وأدخل على أنفسنا الكثير من الاطمئنان – ولكن إعجابنا بذكائه فى هذه السنة جعلنا نظن أنه يفيد ابننا إذا استغل ذكاءه فى توفير السنة الثانية من سنى الروضة وإعداده إلى السنة الأولى الابتدائية مباشرة . فجاءت نتيجة الامتحان على ما نرغب ونشتهى

ودخل الطفل الفرقة الأولى من المدرسة الابتدائية فكنا نتحدث فخورين بتفوق ابننا ، وكنا نشعر بالفخر حين نسمع الناس يذكرون ابننا معجبين بنشاطه وذكائه ولكن ماذا كان الثمن ؟

لم يمض شهر واحد من العام الدراسى حتى مرض الطفل مما أدى إلى ملازمته الفراش ، ثم مضى شهر يلى الآخر والطفل ينتقل من ضعف إلى ضعف ، حتى ضاع عليه العام الدراسى الذى أردنا أن نقتصده من حساب

سنى الدراسة وليس هذا كل شيء تأخرت حالة الطفل الصحية وكثر تغيبه حتى أصبح من المتخلفين فى فرقته وبذا حرم متعة التفوق على أقرانه وبدأ يشعر بالملل من الذهاب إلى المدرسة ، وكان فيما مضى ممتلئاً باللهفة عليها ، وأخذ الشعور بالملل يزداد حتى بلغ فى نهاية الأمر إلى التمارض المتكرر ، والتماس شتى الحيل هرباً من المدرسة التى سئمتها نفسه بعد أن ذاق بها مرارة التخلف . هذه قصة ابنى من البداية وأرجو أن تساعدينى فى علاجه »

وبعد أن سردت الأم هذه القصة ، بدأت أوضح لها الأخطاء التربوية التى ارتكبها الوالدان فى حق طفلهما والتى تتلخص فيما يأتى

١ – إن إعجاب الوالدين بذكاء طفلهما (ما هو إلا إعجاب بذاتيهما) فى هذه السنة كان إعجاباً ساذجاً ، فلم يتركاه ينعم بالهناءة التى كان يلقاها بالروضة ، ولم يتركا شعوره بالتفوق على أقرانه ينمى فى نفسه وبنيته حوافز الرغبة فى الدرس والثقة بالنفس والاستمتاع بما يخلقه النجاح من لذة فى العمل والجد ، لذلك حرماه من ذلك كله بنقله إلى السنة الأولى الابتدائية وتوفير السنة الثانية فى الروضة

٢ – لم يدرك الوالدان أن طفلهما – أولا وقبل كل شيء – طفل من حقه أن يتمتع بطفولته ، وأن ينطلق فى رحابها مرحاً لاعباً ، وأنه فوق هذا عليل ، من حق صحته عليه أن تلقى المزيد من الملاحظة والعناية ، ولكن الوالدين أغفلا هذه الحقيقة فزاد ضغط المدرسة عليه ولم تتحمل صحته ، فأدى ذلك إلى إصابته بالمرض ، فتأخرت حالته الصحية وكثر تغيبه حتى عدّ من المتخلفين فى فرقته ، وبذا حرم متعة التفوق على أقرانه ، وكان

سينعم بهذا الشعور مدى حياته لو ترك وشأنه ليسير فى الطريق الطبيعى دون ضغط أو إرهاق

٣ – جهل الوالدين ببعض المبادئ التربوية اللازمة لكل أب وأم – كى يستطيعا تقدير مصلحة ابنهما تقديراً صحيحاً وكى يسعدا ويفخرا بأنه سليم البنية متفوق على أقرانه – أدى هذا إلى الإساءة البالغة التى أصابت الطفل فى جسمه وعقله ونفسه وأخلاقه وفى سعادته وحياته حاضراً ومستقبلا بلا شك . فأساءا تقدير حدود الطاقة لابنهما فى غير إرهاق ، وأهملا ناحية هامة كان يمكن أن يستغلاها لنفع ابنهما دون أن يحملاه ما لا يستطيع ، تلك هى تكوين شخصيته بالمناقشات الودية السهلة والمطالعات البسيطة المفيدة ، ومصاحبته إلى النزهة أو فى أى ناحية من نواحى التجديد والترفيه لتنمية الثقة بنفسه وزيادة قدرته على مواجهة الحياة غالباً لا مغلوباً

التحليل النفسى للحالة

حالة الطفل التى سبق ذكرها والأخطاء التربوية التى تعرض لها والاضطراب فى السلوك والتأخر الدراسى وعدم قدرته على التكيف فى مجتمعه المدرسى والمنزلى ، يعتبر مثلا واضحا للصراعات الداخلية التى كان يعانى منها نتيجة الضغوط الملقاة عليه كى يستمر بالدراسة وعدم قدرته على تحمل هذه الضغوط نتيجة لسوء صحته ، وبذلك ساءت صحته من الناحية الجسمية والنفسية فزاد تخلفه على أقرانه وفقد الثقة بنفسه وبدأ شعوره بالنقص الذى ظهر فى اضطراب سلوكه وعناده

وعدم طاعته وهروبه من المدرسة وإساءته إلى الآخرين بالعراك معهم (الأمراض التى من أجلها طلب العلاج) وفى الحقيقة فإن هذه الأعراض ما هي إلا تعويض للنقص والقصور اللذين يشعر بهما الطفل ، والضغط النفسى الداخلى لعدم قدرته الصحية والنفسية على مسايرة ركب الدراسة وتوافقه مع مجتمعه المنزلى والمدرسى ، مضافاً إلى ذلك عدم فهم والديه لحاجاته النفسية فى هذه المرحلة من العمر ، ومبالغتهما فى عقابه والإساءة إليه بسبب ما يرتكبه من أخطاء وانحراف فى السلوك وعدم تعاونه مع الآخرين

واستمر علاج هذا الطفل حوالى ثلاثة شهور – ولحسن الحظ كان ذلك فى شهور الإجازة الصيفية – وكان العلاج يشمل جلسات نفسية للطفل ، وتوجيهاً وإرشاداً إلى الوالدين وتوعيتهم إلى كيفية معاملة الطفل فى الظروف المختلفة وتنشئته التنشئة النفسية السليمة كى يستطيع أن يستكمل طريق الحياة الطويل الشاق بشخصية متزنة قادرة على مواجهة الحياة بكل صعوباتها

وفعلا تم الشفاء للطفل من الناحيتين الجسمية والنفسية وبدأ بداية طيبة فى العام الدراسى التالى . وأخذ يسير فى دراسته بخطى متزنة واثقة ، وتوقف عن السلوك المنحرف فى معاملة المحيطين به فى المنزل والمدرسة . وأدرك الوالدان أخطاءهما فى تنشئته واطمأنا إلى مستقبل ابنهما لتجاوبهما لتعليمات العلاج .

عادت إليه السعادة بعد الحرمان

الحب هو عماد الحياة الإنسانية ، ومن الضرورى أن يتناول الإنسان منه جرعات مشبعة من بداية حياته ، فالحرمان من الحب كثيراً ما يلوث النفس بالقسوة الحيوانية ويدفع المحروم إلى الانحراف فى السلوك أو إلى ارتكاب أبشع الجرائم

فالحب يبدو فى عطف الأم على طفلها وحرصها على البقاء بجانبه دائماً حتى لا يفتقدها عندما يحتاج إليها ، وهو إذا جاع فعلى أمه أن تسرع بإطعامه ، وإذا صرخ بالليل منادياً فعليها أن تأخذه فوراً بين أحضانها تهدهده وتدلله حتى تعيد إليه هدوء نفسه واطمئنانها وإذا كان يخاف من الظلام فمن الضرورى أن تضاء غرفته بنور بسيط يبدد الظلام من حوله

وفيما يلى قصة صبى حرم من هذا الحب فانحرف سلوكه واضطربت نفسيته وجىء به إلىّ لعلاجه

كان سمير فى الثالثة عشرة من العمر نموه الجسمى كان يسبق عمره وأصبح جسمه دائماً أكبر من سنه بكثير مما كان يسبب له أشد الإحراج بين زملائه الصغار ، كل شىء فيه مرتب مهندم ونظيف . أخذت أتأمله لا شىء فى تصرفاته يدل على حالة نفسية شاذة ، عيناه لامعتان . شفتاه ثابتتان . حديثه متزن لا تناقض فيه . . وبرغم ذلك فالمظهر الخارجى لا يدل على شىء ، إن كثيراً من الحالات تتميز بمظهر خارجى ثابت

لا يدل على الاهتزاز الداخلى الذى يعانيه المريض ثم إن هذا المظهر الخارجى الثابت قد يكون مجرد فترات استراحة بين أزمات نفسية عنيفة

وبدراسة حالته تبين أن سمير الابن الوحيد لزوجين يختلفان تمام الاختلاف فى شخصيتيهما ونظرتيهما إلى الحياة . كان الوالد رجل أعمال له اتصالات واسعة بحكم وظيفته التى كانت تستدعيه السفر بعيداً عن بيته لفترات طويلة يعود بعدها إلى بيته ، ومع ذلك فكان لا يشعر بالراحة والاستقرار فيه

كانت الوالدة مدرسة مسيطرة جبارة ، فجعت بعد زواجها منه فى ضعفه وزهده فى الطموح وتفضيله هذه الوظيفة التى تبعده عن أسرته معظم الوقت كانت تستبد به وتمحو شخصيته ، الأمر الذى دفع به إلى تمسكه بهذه الوظيفة التى تبعده عن البيت ، وتريحه من سيطرة زوجته معظم الوقت

ولد سمير فى هذا البيت غير المستقر كانت أمه شديدة التعلق به ، أى بطريقتها الجبارة المسيطرة ، فاعتيادها التحكم فى تلاميذها وإجبارهم على النظام ، دفعها إلى السلوك ذاته مع ابنها الصغير ، فكانت فى صغره تتركه يبكى الساعات فى فراشه معتقدة أنها ما دامت قد أطعمته وغيرت ثيابه فعليه أن يلزم الهدوء فى سريره ولا يصح أن تحمله أو تدلله بلا داع . وعندما يحين وقت تبوله وتبرزه تضعه على الوعاء الخاص بذلك ، فإن أخرج ما فى جوفه كان بها وإذا لم يخرجه تتركه فى مكانه مهما طال الوقت ، فعليه أن يقبل ذلك

ولفرط ارتباطها بعملها حرمته نعمة الرضاعة من ثديها ، فحرم بالتبعية

من حقوقه الطبيعية فى الاكتفاء العاطفى الذى يشبعه نفسياً ويمنحه الشعور بالاطمئنان الذى يجده الطفل وهو راقد فى أحضان أمه

ولشدة لهفتها عليه منعته من الاختلاط بالأطفال الآخرين ، ولكى تعوضه عن هذا النقص غمرته باللعب المختلفة التى يعالج بها وحدته

كان تقرير المدرسة عنه بأن ذكاءه فوق المعدل الطبيعى ، كان جميع المدرسين يشهدون له بالتفوق وحسن السلوك ، حتى إنهم كانوا يتنبأون له لتفوقه بمستقبل مضىء ومنح وبعثات دراسية فيما بعد كان دائماً الأول بين أقرانه ، وكان يمنح الأوسمة والمكافآت تشجيعاً له لاستمراره فى هذا التطور كان من المحتمل أن يبذل مجهوداً شاقاً فى الدراسة لأنه كان يعانى من مشاكل أسرية فى المنزل .

وبمرور الزمن ، اكتشفت الأم أن زوجها على علاقة بامرأة أخرى وأن له منزلا آخر فى إحدى ضواحى المدينة يتردد عليه مع رفيقته بين آن وآخر

وعلى الرغم من أنه فى مثل هذه الظروف ينبغى على الفرد التحقق من صحة هذه الأنباء قبل أن يلجأ إلى أى تصرف ، ومع ذلك فقد زادت من سوء معاملتها لزوجها والحقد عليه ، وكانت تلجأ إلى إثارة المشاكل والخلافات والعراك فى الأسرة ، وكانت دائماً تحاول أن تشرك ابنها سمير فى خلافاتهما التى لا تنتهى وكانت تغرس فى نفس ابنها الكراهية والحقد الشديدين نحو والده ، واتهمته بأنه إنسان شرس لا يحب أسرته ولا زوجته ولا ابنه ، وأنه يقضى معظم وقته فى الخارج مع نساء مستهترات ولا يهتم بحياته الزوجية

وأخيراً تركت المنزل وذهبت إلى بيت والدها ومعها ابنها سمير

كان والداها المسنان يعيشان فى منزل صغير لا يتسع لإيواء فردين آخرين ، يضاف إلى ذلك عدم رغبتهما فى تحمل عبء ، وشقاوة وضوضاء صبى صغير ، حتى إنهما أنفسهما لم يرغبا فى إنجاب ولد لعدم استعدادهما لتحمل مضايقات صبى صغير ، ومع ذلك فلم تحاول الأم تعديل الأمور ووضعها فى صورة محببة إليه ، فكان يعانى من سوء معاملة جده ، فكان يضيق به ويقسو فى معاملته ، فكان يضربه ويطرده من البيت بالليل لأبسط هفوة لا تستحق العقاب ، فلا يجد المسكين مكاناً لمبيته سوى أرصفة الشوارع أو مداخل العمارات أو مقاعد الحدائق العامة وكانت الأم ترى هذا الجحيم المستعر الذى يحترق فيه ابنها ولا تمد يدها لمعونته خوفاً من أن تغضب والدها فيطردها هى الأخرى

بدأت المتاعب تظهر بوضوح على سمير فى المدرسة فبدأ يتأخر فى دراسته وينحرف سلوكه فكان يميل إلى إيذاء الغير وإهمال واجباته المدرسية وهروبه من المدرسة وتشرده فى الشوارع ، ويتبع ذلك كثرة الشكاوى من الجيران لما يسببه من إيذاء وتحطيم ممتلكات الآخرين

أصبح سمير فى حالة نفسية مضطربة ، فظهر ذلك فى سلوكه المنحرف الذى أخذ يزداد إلى أن أصبح فى حالة شرسة مما كان سببا فى استدعاء المدرسة لوالده الذى كان يرغب فى ضم ابنه إليه ، ولكن الأم قاومت هذه الرغبة فإن أنانيتها وتفكيرها المركز حول نفسها من أسباب تجاهلها ابنها وعدم إحاطته بحبها ورعايته منذ طفولته ، فرفضت تسليمه لوالده اعتقاداً منها بأنه كان له التأثير السيئ عليه منذ ولادته ، الأمر الذى

أدى إلى النتيجة السيئة الحالية فتركها الوالد وعاد إلى حيث جاء لأنه لم يرد أن يدخل نفسه فى مشاكل أخرى . ولم يهتم بأمر ابنه وتركه إلى غير رجعة .

كان سمير شديد الحقد والكراهية لوالده لما غرسته أمه فى نفسه منذ طفولته استمر انحرافه الذى ظهر فى ظاهرتين من الأعراض . السرقة والاعتداء ، وفى مرة كان اعتداؤه بصورة غير محتملة ، فلجأت أمه إلى تسليمه إحدى مؤسسات الأحداث لأنه أصبح فى حالة شرسة ، وهى غير قادرة على التحكم فى سلوكه ولا تستطيع تحمل استمرار بقائه معها لما يسببه لها ولوالديها من متاعب غير محتملة

وكان من ضمن العوامل التى زادت فى هذا السلوك غير الطبيعى ، أن الصبي نفسه قد اقتنع من كثرة ما كان يطرأ على سمعه من تعليقات الجدة بأن الصبي يجرى فى عروقه « الدم الردىء » الذى انتقل إليه من والده ، فكانت النتيجة الحتمية لهذا الاقتناع ظهور هذا الانحراف السلوكى

وأخيراً حجز سمير بمؤسسة من مؤسسات الأحداث لفترة معينة ، حيث ازدادت الحالة سوءاً ، فكان لهذه الفترة أثرها النفسى والتربوى عليه حيث عانى فيها أقسى التجارب وأمرها فى الحياة ، إذ كانت المشرفات هناك ينكلن به لأبسط هفوة تصدر منه ولا يعطينه من الطعام ما يكفى لسد رمقه ويتركنه ينام بالليل والظلام الدامس يخيفه وهو وحده ، فيصرخ ويزعج المقيمين معه فى المؤسسة ، وبدأ يبلل فراشه ليلا ، ويقوم مذعوراً من فزع ليلى رهيب وكان إذا بل الفراش يعاقبنه بالضرب المبرح

ولقد أتت هذه المعاملة القاسية بعكس النتيجة ، إذ ظل يتبول على

نفسه إلى أن اشتد عوده وكبر وكانت المشرفة هناك حينئذ تأمره بتغطية رأسه بالملاية المبللة بالبول وتطوف به على أقرانه تحرضهم على إهانته والتنكيل به فكان يعانى ويحترق بلهيب العذاب والخزى والحرمان .

كانت نوبات الفزع الليلى التى كانت تنتابه ليلا نتيجة وجوده فى آتون العذاب ، فيظل يصرخ ويبكى حتى يصل صوته إلى آذان المشرفات ، فيسرعن إليه وينزلن به العقاب اللازم جزاء عصيانه

وأخيراً بدت بارقة الأمل فى أفق سمير عندما تزوجت أمه بأحد المدرسين التربويين ، وهو زميل لها فى عملها ، ورضى هذا الزوج أن يعيش الابن معهما ، وخرج الصبى من المؤسسة ليستنشق نسيم الحرية فى أول مرة فى حياته ، ولحسن حظه كان هذا الزوج طيب الخلق عطوفاً على سمير ، شعر بأن هذا الانحراف السلوكى الذى يظهر فى تصرفاته فى حاجة إلى المشورة الطبية النفسية وبصفة عاجلة ، فأقنع والدته بذلك وجاءا به إلىّ لعلاجه

استمر علاجه عدة شهور أخذت أنقب فى لفائف العقل الباطن عما يختزنه من الدوافع إلى هذا السلوك المنحرف . ولقيت مقاومة شديدة فى فتح عقله الباطن ولكن أمكننى التحايل على عناده بأساليبى العلمية ، أحادثه وأناقشه وأستدرجه إلى الإفضاء بدخيلة نفسه بقصد الوصول إلى خفايا عقله الباطن ، وما يكمن بين طيات اللاوعى من دوافع أدت إلى انقلابه من صبى هادئ ذكى متفوق فى دراسته إلى صبى منحرف شرس فاشل فى دراسته متشرد يؤذى ويعتدى ويسرق

وبعد فترة وجيزة من العلاج بالأدوية المهدئة والجلسات النفسية

أمكنني أن أكسب ثقته ، وأمكنني أن أصل إلى قرار العقدة التي ذهبت برشده ، وأطفو بها إلى السطح حيث العقل الواعي القادر على تصفية العقد ورد العقل إلى توازنه الطبيعي . فحين وجد سمير المناخ الأسرى الدافئ الذى حرم منه منذ طفولته بدأ يستعيد قدرته ونبوغه ومحاولاته لتحقيق آماله ، وعلى الرغم من أن هذه المحاولات كانت شاقة ومجهدة لأى فرد فى مكانه يتعرض لمثل ظروفه ، فقد تمكن تدريجياً أن يعيد إحساسه بوجوده بتدعيم حياته مرة ثانية بالقيم اللازمة لأى فرد ، لكى يحيا حياة كريمة منتجة يحِب ويحَب ، وعادت إليه ثقته بنفسه وزال عنه الإحساس بالنقص الذى كان قد غرس فى نفسه بسبب تحطيم حياته الأسرية .

ولقد أمكنني شفاء سمير ، فاستطاع أن يتم دراسته الثانوية بنجاح ثم دخل الجامعة وانتظم فى صفوفها موفقاً وكان ذلك بفضل أمرين هامين :

أولهما — بقايا الخير الكامنة فى نفسه ، والأمر الثانى أسلوبى فى علاجه ، فلم أصدر عليه حكمى بالإدانة ولم أشعره بأنه منحرف ، بل أقنعته أنه مريض وسوف يشفى بالعلاج تماماً

فبالحب الصحيح والتقدير والحزم والصراحة استطاع العلاج النفسى أن يكشف للصبى عن أصول علته ، ويرشده إلى طريق السلامة .

وكان يصاحب العلاج النفسى توجيه لوالدته ولزوجها عن كيفية معاملته والأسلوب الصحيح فى تنشئته تنشئة نفسية صحيحة . وقد استجاب للتوجيه ، ولا سيما حين بدأت بوادر الشفاء تظهر عليه .

التحليل النفسى للحالة

الحرمان من حب المحيطين به :

ليس هناك أقسى على النفس وأشد مرارة على إحساس الطفل من أن يكون مكروهاً وغير مرغوب فيه من أى شخص ممن يحيطون به . . فإن أهم عنصر لبناء الشخصية السوية أن يحس الإنسان خصوصاً فى بداية حياته بأنه مرغوب فيه خصوصاً من أقرب الأقربين إليه فهل أعطى سمير فرصة الإحساس بذلك ؟ الجواب طبعاً بالنفى . فأبوه لم يكن يريده منذ مولده بدليل قسوته على زوجته وتخليه نهائيًّا عنه ، وكذلك تخلت أمه عنه أيضاً ووضعته فى المؤسسة راضية بعد أن ذاق العذاب من معاملة جده وضربه ، وأحياناً تعذيبه وأحياناً طرده بالليل إلى ظلام الشارع حيث لا فراش ولا أنيس ولا مأوى .

كأن الظروف تكاتفت لتقنع سمير فى جميع مراحل حياته بأنه مخلوق تعس لا يريده أحد ، والجميع لا يريدونه ويتمنون القضاء عليه دون ذنب جناه هذه الأوهام البشعة والمشاعر الحزينة التى أوجدتها ظروفه المثقلة بالعذاب والحرمان ، هى التى دفعته إلى إيذاء صبية آخرين أبرياء لم يسئ أحدهم إليه مثلما لم يسئ هو إلى أحد . ومع ذلك فقد تجرع من العذاب ألواناً مختلفة فالطفل كى يتحول إلى إنسان كبير سليم النفس والأخلاق يحتاج إلى أكثر ما يحتاج إلى الشعور برغبة الآخرين فيه ، لا بالكلام المفتعل ، بل بالعطف والحنان والرفق والتسامح بالابتسامة الحلوة والقبلة الرقيقة والضمة الحانية والاستعداد لحبه بكل أخطائه ومساوئه

أهمية الاختلاط بالآخرين

إن الطفل يحتاج فى مرحلة نموه المبكرة إلى الاختلاط بأبناء جنسه من الجنسين ، فعن طريق تعامله معهم يتعلم التعامل مع الحياة وينضج إدراكه فى ظل الروابط الاجتماعية . . وهو ما لم يحدث لسمير الذى أبعدته أمه عن الاختلاط بالأطفال الآخرين ، فسلبته القدرة على التعامل الاجتماعى ، وسلبته موهبة التعبير عما يجول بخاطره ، وتركته فى معركة ضارية مع نفسه القاصرة التى تجسم له عجزه وتفاهته ، وتغريه بمحاولة القيام بعمل - أى عمل - يثبت به رجولته ، ويسترد به احترامه لنفسه ، ذلك الاحترام الذى دمرته أمه بسيطرتها عليه واحتقارها له ، وأضاع عليه فرصة الفوز بهذا الاحترام بتخلى أبيه عنه ، وعدم محاولة الاهتمام به ورعايته وإشعاره بحبه .

أهمية التنشئة النفسية الصالحة

إن الإنسان لكى ينشأ تنشئة تربوية صالحة تساعده على الاستمتاع بحياة مستقبلة هانئة يحتاج بالضرورة أن يعيش طفولته الأولى بكل أبعادها دون أى قيد خارجى يشكل ضغوطاً نفسية أو جسمانية عليه ولكى يعيش طفولته بكل أبعادها ينبغى أن يترك - خصوصاً خلال العامين الأولين من عمره - على سجيته يمارس الحريات الطبيعية التى تقتضيها طبيعة هذه الفترة من عمره ، ومعنى ذلك أن يأكل عندما يجوع ويتبول حيثما يشاء

فمحاولة منع الطعام عنه وحرمانه من حرية التبول على نفسه بفرض نظام صارم لا يستطيع الطفل أن يدرك معناه ولا تقوى طبيعته على اتباعه -

يؤدى إلى حرمانه من حقه فى التمتع بطفولته التى هى غذاء روحى يبنى الأساس القوى لشخصه ، ويدفعه بفعل الضغط عندما يكبر ، إلى العودة إلى الطفولة فى أثناء نومه ، وهى حالة اللاوعى فى حياة الإنسان لممارسة الحريات الطبيعية التى حرم منها

لذلك ينبغى على الأم الواعية العاقلة أن تتجنب تنظيم تبول الطفل خلال السنتين الأوليين من حياته بصورة صارمة يتخللها القسوة والعقاب والتهديد والوعيد فى حالة الفشل بل تبدأ فى تنظيمه بالتدريج مع التفهم لحاجاته النفسية ، وذلك لأن تبول الطفل على نفسه بعد سن الطفولة بمثابة الاحتجاج الشديد على الضغط الظالم الذى تعرض له فى بداية حياته فيحرمه حقه من الاستمتاع بطفولته

وهذا ما حدث لسمير ، فقد حرمته أمه بقسوتها البالغة أن يعيش الفترة الأولى من حياته على سجيته وبذلك سلبته طفولته وسلبته معها فرصه فى أن يبنى شخصية سليمة لقد أضافت إلى هذه الجريمة جريمة أخرى وهى إلحاقه بالمؤسسة حيث لاقى من قسوة المشرفات بها والتنكيل به باستمراره فى التبول بعد أن شب عن الطوق وكبر ، ودفعته بذلك إلى احتقار نفسه ، بل ويرى نفسه فى صورة إنسان منحرف غير طبيعى

الأخطاء التربوية

١ – عدم توافق الوالدين واستمرار الخلاف بينهما أدى إلى اضطراب الحياة الأسرية التى تعتبر البيئة التى ينشأ بها الطفل وينمو ، فضاع الانسجام الأسرى الذى يعيش فيه سمير

٢ – حقد الأم على زوجها وبث روح الكراهية فى الطفل نحو أبيه كان ذلك من الأسباب الهامة فى انحراف سلوك سمير لكراهيته لوالده ، وبالتالى كراهيته للمجتمع وأفراده وارتكابه حوادث الإيذاء للآخرين .

٣ – استمرار بُعد الأب عن المنزل هرباً من المشاكل والخلافات الأسرية الأمر الذى أدى إلى اتساع فجوة الكراهية بين الأب والابن وإحساس الطفل بعدم الانتماء لوالد يحنو عليه ويحبه ويرعاه

٤ – عدم تفهم الأم بحاجات ابنها النفسية فى كل مرحلة من مراحل عمره أدى إلى عصيان الطفل وعدم طاعته لها ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى رغبتها فى التخلص منه بإيداعه فى إحدى المؤسسات الخاصة بالأطفال حيث لاقى المرارة والعذاب فى المعاملة فأصبح يكره الناس والمجتمع ونفسه

٥ – أنانية الأم واهتمامها بأمور نفسها وعدم إحساسها بحاجة الطفل إلى حبها ورعايتها وحنانها هو الغذاء الأساسى الذى تنمو عليه شخصيته وحياته مستقبلا فحرم من أهم الأسس الهامة لبناء شخصيته

٦ – قسوة معاملة الجميع له وكأنما تكاتف الجميع ضده ، وعدم تقديرهم لمشاعره وحاجته إلى الحب والحنان والفهم . الأمر الذى أدى فى النهاية إلى إحساسه بأنه غير مرغوب فيه . . فحقد على الناس وكره نفسه

٧ – سوء معاملة المشرفات له فى المؤسسة والتنكيل به وعقابه بأشد أنواع العقاب فى حالة وقوعه فى أى نوع من الخطأ زاد من كراهيته لأمه ولوالده وللمجتمع ورغبته فى الانتقام بارتكابه حوادث الانحراف بصورها المختلفة

مما سبق نرى أن البيت للطفل بمثابة الأرض للبذرة ؛ فالأرض الطيبة تنمو فيها البذرة نمواً طبيعياً سليماً وتنتشر انتشاراً يعطى أكبر إنتاج تستطيعه هذه البذرة – كذلك البيت الهانئ هو المكان الذى ينمو فيه الطفل نمواً طبيعياً سليماً من جميع الوجوه جسمياً وعقلياً واجتماعياً ، وهو أيضاً المكان الذى تتفتح فيه الاستعدادات الكامنة لدى الطفل – فتتكشف له قدراته ، ويطمئن إلى نفسه وإلى من حوله – وبعبارة موجزة البيت الهانئ هو البيت الذى يكسب الطفل ما يؤهله لمواجهة الحياة خارج البيت – وهو أيضاً المدرسة الأولى للمرانة الاجتماعية فإذا خطا الطفل الخطوة التالية وخرج من البيت ينضم إلى المدرسة ويصبح عضواً فى أسرتها ، أقبل عليها مرحباً ، لأن الجو العائلى فى البيت مهد له السبيل لكى يقيم علاقاته بالغير على أساس من الطمأنينة والتعاون .

وكما أن الأرض الضعيفة تسىء إلى البذرة ، كذلك البيت المضطرب لا يصلح بأى حال لتنشئة الإنسان الصغير ، مهما توفر المال والجاه وغير ذلك من وسائل التعويض المادى البيت المضطرب لا يخرج منه إلا إنسان مضطرب التفكير ، معتل الإحساس ، تعوزه سلامة النظر إلى نفسه وإلى الغير ، ولن يكون هذا الفرد سعيداً ولا مواطناً نافعاً فقط ، بل يؤدى عدم الانسجام والتوافق الأسرى إلى إصابة الأطفال بالاضطرابات النفسية والانحرافات السلوكية التى تؤول فى النهاية إلى أسوأ المصير إذا لم تطلب المشورة الطبية النفسية للعلاج

لذلك ينبغى أن نكون حريصين على أن نحيط الطفل دائماً بالجو العائلى الهانئ ، الذى يمده صاحبه بالطمأنينة والشعور بالدفء ، ويتيح له

حرية فردية ينظمها التفكير التعاونى والرغبة فى رعاية حقوق الغير – ينبغى أن يكون البيت المكان الذى تقوم فيه المعاملة على أساس من الزمالة والتقدير ، المكان الذى يجد أصحابه الصدرَ الكريم الذى يجمع بين العطف والحزم والقلب الكبير الذى فيه متسع للتسامح ، والعقل الراجح الذى يحسن التوجيه وأداء النصيحة بذلك يمكن خلق جيل ناضج متزن ناجح نسعد به نحن والوطن أيضاً

كيف شفيت وفاء من التبول اللاإرادى

جاءتنى إلى العيادة امرأة فى حوالى الثلاثين من عمرها متوسطة الجمال ، يبدو عليها القلق والاضطراب ، تشكو من أن ابنتها وفاء (البالغة من العمر خمسة عشر عاماً) تتبول أثناء نومها فى كل ليلة ، وأن هذا الأمر يسبب قلقاً شديداً لها ولوالديها ولا سيما أن الفتاة هى الكبرى من طفليها وقد حدث هذا عقب وفاة والدها وهى فى سن الرابعة أى بعد أن كانت قد قطعت مرحلة طويلة فى ضبط نفسها من التبول

وبدراسة الحالة وجدت أن الحالة الصحية للفتاة طيبة وخالية من جميع الأمراض الجسمية التى يحتمل الرجوع إليها ، وأن الأسرة كانت حالتها المالية فوق المتوسط ، وكان الوالد شاباً ناجحاً فى عمله ، وكان كل من الوالد والفتاة متعلقاً بالآخر تعلقاً شديداً ، فكان الوالد يأخذ وفاء معه فى نزهاته وفى الحفلات الكثيرة التى يدعى إليها ، وكانت وفاء لحيويتها

وجمال شكلها وذكائها ولباقتها موضع فخر والدها وموضع التفات أصدقائه ، وكان الوالد مرتبطاً بذهن الفتاة برباط جميل .

مات الوالد فجأة ، وشاهدت وفاء بعد ذلك ما يصحب الوفاة من أمور مزعجة غير عادية ، وبذلك حدث انقلاب مفاجئ فى حياة الطفلة ، ويلاحظ أن الأم كانت أقل تعلقاً بالابنة عن الوالد وكانت أكثر تعلقاً بابنها الصغير عنها وبعد وفاة الوالد حصل هبوط شديد فى مستوى موارد الأسرة مما اضطرها إلى تغيير مستوى معيشتها تغيراً كبيراً فقد أخذت الأم أولادها وسكنت مع أمها فى مسكنها الذى لم يكن يتسع أصلا إلا لها ولابنتها الأخرى وابنها الصغير ، ومع ذلك اتسع المنزل لوفاء وأمها وأخيها وبعد مدة قصيرة تضايقت الجدة من الأطفال وميلهم إلى الحركة واللعب والصياح الأمر الذى لم تعتد عليه فى سنواتها الأخيرة فكانت تلقى سخطها على مسمع من الأولاد ، ونظراً لأن وفاء أكثر نشاطاً وانطلاقاً من أخيها الصغير فقد كان يخصها من سخط جدتها النصيب الأكبر وما إن وصلت الفتاة إلى سن السادسة حتى بدأ يحدث فى مجال حياتها تغيير جوهرى آخر هو أن أمها بدأت تفكر فى الزواج وكانت وفاء غير راضية عن هذا الزواج ، وعدم رضائها قد يكون بعضه بوحى من حولها ، من جدة وخال وأقارب وبعضه قد يكون لأنها كانت تحس إحساساً غامضاً بعضه قد يكون راجعاً إلى أن نفسها تأبى أن يحل شخص غريب محل والدها ، وبعضه قد يكون راجعاً لما كانت تسمعه من أن زوج الأم يجعل جو المنزل عادةً غير سائغ لأطفال من زوج آخر

خلاصة الأمر أن الفتاة كانت كارهة لهذا المشروع وكارهة لأمها ،

وبالتالى أصبحت أمها تكرهها ، وكانت تحرض أخاها الصغير عليها لدرجة أنها كانت تطلب منه أن يبصق فى وجهها ويعيرها بالتبول ليلا إذا أغاظته وبهذا أصبح مركز الطفلة فى مجال حياتها ينتقل بسرعة من سئ إلى أسوأ ، فبعد أن فقدت الفتاة أباها لم تجد فى أمها أو جدتها عوضاً ، بل بالعكس وجدت منهما حقداً على حد تعبيرها وتقديرها وأخذت هذه الخصومة تزداد ، وبذلك ازدادت مخاوفها وازداد ضعف ثقتها بنفسها زيادة كبيرة ولوحظ أن الفتاة فى أثناء نومها كانت تتقلب وتنام نوماً مضطرباً وكانت عند تبولها فى أثناء نومها تصيح وتشتم موجهة شتائمها للنساء وكان تبولها مصحوباً بشبه كابوس شديد ، وأحلامها كانت مصارعة الثعابين التى كانت تعضها وتغلبها على أمرها (ولعل الثعابين كانت فى أحلامها لخطيب الأم)

التحليل النفسى للحالة

كانت الفتاة مرتبطة إرتباطاً شديداً بوالدها ، لا سيا وأن أمها كانت أكثر تعلقاً بالابن الصغير مما أدى إلى بعد الأم لا شعورياً عن حياة وفاء وتعويض ذلك بحب الوالد وحنانه عليها فحين فوجئت بوفاة والدهاصدمت وشعرت بفقد السند الذى كانت تشعر بالاطمئنان فى وجوده فأصابها الاضطراب والقلق والخوف وعدم الإحساس بالراحة النفسية ، فكانت نتيجة ذلك أن بدأ التبول اللاإرادى مباشرة بعد وفاة والدها

ومن العوامل التى زادت فى سوء الحالة النفسية لوفاء هو

١ – سوء معاملة أمها لها وحرمانها من كل رغباتها ، ولا سيا بعد سوء

الحالة المالية للأسرة عقب وفاة الوالد

٢ – قسوة الجدة عليها بصورة شديدة حين ترتكب خطأ غير مقصود

٣ – عدم إحساس الفتاة بكرامتها لسوء المعاملة والإهانة التى كانت تلاقيها من أخيها الصغير بتحريض من الأم

٤ – رغبة الأم فى الزواج الأمر الذى أضاف إلى وفاء القلق النفسى والخوف من المجهول مما زاد فى كراهيتها لأمها وزيادة كراهية الأم لها بالتالى

وبذلك فقدت الفتاة الإحساس بالأمن والثقة بالنفس وأصابها الشعور بالنقص والقلق والخوف وعدم الشعور بالطمأنينة ، الأمر الذى أدى إلى عدم قدرتها على التحكم فى التبول ليلا وابتلال فراشها مرات متكررة كل ليلة ، وظهر الاضطراب فى أحلامها وفى الكابوس الذى كانت تصاب به فى أغلب الليالى

حاولت الحصول بعد مقاومة كبيرة على تعاون الأم فى علاج ابنتها ، وذلك بانتظام ترددها للعلاج والمتابعة فى جلسات نفسية مع وفاء ومقابلات مع الأم بمفردها لتوجيهها إلى كيفية معاملة ابنتها حتى تشفى من الأعراض التى تسبب لجميع الذين يحيطون بها الكثير من الإزعاج ، وقد أوضحت لها ذلك بضرورة المساواة فى المعاملة بين الفتاة وأخيها وفى بذل الجهد لمساعدة ابنتها على الشفاء من التبول اللاإرادى . (وفى فهم حاجتها النفسية ، وإعادة كرامتها إليها وإغداق الحب والحنان اللذين حرمت منهما منذ وفاة والدها).

كانت فرصة علاج وفاء وسيلة أيضاً لعلاج الأم التى كانت فى حالة نفسية غير مرضية للظروف التى كانت تعانى منها بعد وفاة زوجها وسوء

الحالة المالية وحالة ابنتها المضطربة غير الطبيعية وتبولها فى فراشها ليلا
وبانتظام العلاج أمكننى أن أحقق الشفاء للفتاة وفى تحسين مركزها بتحسن مجال حياتها والوصول بها إلى شعورها بحب والدتها وتقديرها لها ، وبذلك توقف التبول اللاإرادى نهائياً وعاد إليها الاتزان النفسى وتخلصت من الاضطراب السلوكى الذى كان من مصادر الشكوى والرغبة فى العلاج منها

مما سبق نرى أن التبول اللاإرادى أحد أعراض الاضطراب الانفعالى الذى ينشأ نتيجة ظروف بيئية وأسرية غير ملائمة وسوء معاملة الطفل وعدم تقدير مشاعره وحرمانه من الحب الذى يعتبر الغذاء النفسى له . فإذا توفرت للطفل البيئة الهادئة البعيدة عن الاضطرابات والاختلافات شعر بالأمن والاستقرار ، وكذلك إغداق الحب والحنان عليه اللذين يعتبران من الأعمدة الأساسية الهامة لتكوين شخصية متزنة بعيدة عن القلق والكراهية تساعده على النضج الانفعالى فينشأ متعاوناً محباً لأسرته ولوطنه بعيداً عن أعراض الاضطراب النفسى

الغيرة حولت مها الوديعة إلى فتاة مشاكسة

الغيرة أحد المشاعر الطبيعية الموجودة عند الإنسان كالحب والألم ، ويجب أن تقبلها الأسرة كحقيقة واقعة ولا تسمح فى نفس الوقت بنموها ، فالقليل من الغيرة يفيد الطفل ، فهى حافز يحثه على التفوق ، ولكن

الكثير منها يفسد الحياة ، ويصيب الشخصية بضرر بالغ ، وما السلوك العدوانى والأنانية والإرتباك والإنزواء إلا آثار الغيرة على سلوك بعض الأطفـــال ، ولا يخلو طفل من إظهار الغيرة بين الحين والحين ، وهذا لا يسبب إشكالاً إذا فهمنا الموقف وعالجناه علاجاً سليماً ، غير أن الغيرة قد تصبح عادة من عادات السلوك وتظهر بصورة مستمرة وهنا تصبح مشكلة ، ولا سيما حين يكون التعبير عنها بطرق متعددة من السلوك غير الطبيعى

وفيما يلى يظهر تأثير الغيرة على سلوك مها الوديعة وكيف أصبحت مشاكسة

حضر الوالدان إلى عيادتى ومعهما ابنتهما مها فى ميعاد سبق الاتفاق عليه للفحص الطبى النفسى على ابنتهما البالغة من العمر أحد عشر عاماً كانت الشكوى منها بأنها قلقة ، غير مستقرة ، مترددة ، خجولة ، غير قادرة على التفكير المستقل ، لا تستطيع التركيز فى أى عمل ، عنيدة غير مطيعة دائمة الشجار مع أختها الأصغر منها لدرجة الأذى فى بعض الأحيان والسب بألفاظ نابية - يضاف إلى هذا أنها متأخرة فى دراستها وغير متجاوبة مع مدرسيها الذين يبالغون فى عقابها كى يستقيم أمرها حسب اعتقادهم وبدراسة الحالة تبين ما يلى

كان الـوالدان يعملان فى حقل التربية والتعليم وكانا يؤمنان بأنهما على وعى تام بأصول التربية النفسية لأطفالهما فهما يبذلان جهداً كبيراً فى تطبيقها فى معاملتهما لها وقد أظهرا الأسف الشديد لعدم قدرتهما على تنشئة « مها » على هذه الأسس السليمة وأصبح

سلوكها غير محتمل

كانت « مها » الطفلة الأولى لزوجين متحابين ، تزوجا بعد فترة تعارف طويلة ، إذ كانا يعملان معاً فى نفس المدرسة واستمرت « مها » فى السنتين الأوليين الطفلة المدللة المحبوبة من والديها ، طلباتها مجابة ، يغدقان عليها الحب والحنان والعطف بدون حدود إلى أن جاءت الطفلة الثانية ، كانت أكثر جمالاً وألفة من « مها » فاستحوذت على قلب أمها ولم تترك بذلك القلب مكاناً ولو صغيراً للأخت الكبرى التى ظلت إلى وقت قريب قرة عين والديها ، وبعد أن كانت تجلس على عرش المحبة فى أسرتها ، أصبحت تجد نفسها محرومة من جميع ما كانت تستمتع به من قبل فقد شغل والداها عنها بالطفلة الحبيبة الجميلة كما شغلت مربيتها بالطفلة الصغيرة والسهر على خدمتها

وبمرور السنين زاد حقد « مها » على أختها ولا سيما أن الوالدين كانا دائماً يقارنان بين الابنتين ويقيمان موازنات بينهما ويذكران عيوب مها التى تسبب لها المتاعب فكانت الأخت الصغرى تشعر بأنها قد بلغت الذروة وتشعر الكبرى بأنها قد هبطت إلى الحضيض ، وهكذا ثبطت همة مها وانكمشت فى نفسها وتراخت فى عملها وتشجعت الابنة الصغرى وتقدمت فى عملها وكلما زادت الموازنة بين الأختين زادت مها تألماً وزاد انحرافها وحقدها على أختها فيزداد الشجار والخلاف بينهما الذى كان يؤدى فى النهاية إلى مهاجمة مها وإنزال أشد العقاب بها وزادت الأخت الصغرى نشاطاً وتحمساً فى عملها وكراهية لأختها مها ، كانت مهـا تعمل فى الظاهر أحياناً وتستذكر دروسها ولكنها تشكو

من أنها لا تفهم ما تقرأ . وأن فكرها مشتت دائماً عند محاولتها الاستذكار ، فيطير عقلها ويشرد منها انتباهها إلى درجة تصبح معها فى حالة نفسية سيئة ينعكس أثر ذلك على سلوكها المشاكس على أختها

يضاف إلى ذلك لأن الوالدين كانا لا يسمحان لها بالاشتراك مع بقية الأسرة فى الحديث أو الفسحة أو المجالسة أو غير ذلك كنوع من العقاب لسوء سلوكها وعدم تعاملها الطيب مع أختها

استمرت مها فى هذا الجو غير الصحى نفسياً وكبتت معها متاعبها النفسية ، وتصورت فيما بعد بإدراكها الساذج أنها لم تعد مرغوباً فيها وأنهم جميعاً قد تحولوا إلى أعداء لها ، فأغراها ذلك الموقف بالتمرد على أمها وعصيان أوامرها ورغباتها على سبيل الانتقام لنفسها من الأم التى هجرتها وأغلقت أبواب قلبها عنها

أخذت الأم بظواهرها ، واعتبرت ابنتها مخلوقة شريرة فقست فى معاملتها وحرمتها على سبيل التأديب لذائذ الطفولة المختلفة ، ولم تكن تتحرج عندما تتأزم المواقف بينها وبين الطفلة الصغيرة إلى تزويدها بالعقوبات البدنية التى كانت تضاعف من شعور الطفلة بالمهانة وتدفعها إلى الانتقام لكرامتها بمزيد من العصيان والحقد والشقاوة . وكان ذلك يزيد إحساسها بالنقص لمقارنتها علانية بأختها الصغرى .

كان سلوك « مها » فى المدرسة غير مرض أيضاً ، وزادت الشكوى من المدرسات لعدم تقدمها الدراسى وإثارة الشغب والفوضى بين التلميذات ، وكانت المدرسات يلجأن إلى عقابها وضربها حسب رغبة والديها كى يستقيم أمرها وفق اعتقادهم . . ومع ذلك فكانت حالة مها

النفسية تسوء وسلوكها أصبح منحرفاً وصارت تكره الذهاب إلى المدرسة فى معظم أيام الأسبوع إلا فى بعض الأيام ، فكانت حريصة على عدم التخلف فى أيام معينة من الأسبوع . وبدراسة الموقف تبين أنها كانت تواظب على حضور حصص المواد الاجتماعية لأن المدرسة القائمة بتدريسها تحب مها وتقدر ما تعانيه ، وكانت تحاول أن تعاملها معاملة تختلف كلية عن الآخرين فتحاول التفاهم معها وتوجيهها بطريقة فيها الحب والحنان فكانت تستجيب لها وتهدأ ولاسيما فى حصصها ، أما باقى الأيام ، وباقى الحصص فكانت تهرب من الحضور لأنها كانت تعامل معاملة سيئة من جميع المدرسين الآخرين

وأخيراً اضطر والداها إلى عرضها علىّ للفحص الطبى النفسى لعلاجها حين ازداد انحرافها سلوكيًّا فى المدرسة وفى المنزل

التحليل النفسى للحالة

إذا تعمقنا فى دراسة مشكلة « مها » وجدنا أن كل ما حولها يفقدها الشعور بالأمن والاستقرار والثقة بالنفس ، وإحساسها الدائم بالنقص فهناك توبيخ الوالدين وهناك رسوبها ونجاح أختها الصغرى وهذا كله يترك فى الطفلة آثاراً يترتب عليها شعورها بعدم الجدارة ونقص الكفاءة وبعدم القدرة على العمل

وكذلك عدم قدرتها على التركيز والفهم لتشتت فكرها وشرود ذهنها ، إذ أن عقلها فى هذه الحالة ينقسم إلى قوتين ، إحداهما الرغبة فى النجاح والتفوق والأخرى شعور خفى يستولى عليها ويهبط بجهودها ويشعرها

بأن الإخفاق أمر لا بد منه والفتاة حين تتعرض للصراعات النفسية تصبح مخلوقة يائسة ترغب وتعجز عن تحقيق رغبتها ، وتفقد النية ولا تقوى على تحقيقها ، وهى لا تدرك سر القوى الخفية التى تعمل بداخلها والتى هى من غرس الجو المنزلى المحيط بها ، والتى تجعلها غير قادرة على العمل

لم يستطع والداها فهم حاجاتها النفسية ، وكانا يبالغان فى عقابها بدنيًّا ونفسيًّا ، يضاف إلى ذلك مقارنتها بأختها علانية ، فأدى ذلك إلى كراهيتها لأختها واستمرار الشجار بينهما فزادت الفجوة بينهما وساءت علاقتها بجميع أفراد الأسرة ، ففقدت الإحساس بالانتماء وأصبح المجتمع الذى يشمل فى نظرها المدرسة والمنزل حاقداً عليها فكانت تفضل الانطواء وعدم مشاركة زميلاتها ، بل كانت تحقد عليهن وتميل إلى الإيذاء والمشاكسة

سلوك الطفل خارج الأسرة يعكس إحساسه داخلها ، فإذا نال الطفل العطف والفهم والحب والحنان-وهى العوامل الهامة التى تغذى نفسه وتنمى شخصيته - أمكنه أن ينقل هذه الأحاسيس إلى الآخرين ويشعر بالسعادة فى الاختلاط والعطاء ويبعد عنه إحساس الحقد والغيرة أما الطفل الذى يلاقى الكراهية والعقاب والشدة والعنف ويشعر بالغيرة ممن حوله فى الأسرة ، فإن ذلك ينعكس فى كراهيته للآخرين ، وحقده وغيرته ممن يحيطون به ، مما يؤدى إلى الإحساس باللذة فى تعذيب الآخرين وإيذائهم ومشاكستهم لينتقم لنفسه مما يلاقيه من أسرته من سوء المعاملة . وهذا ما حدث فى حالة « مها » .

الأخطاء التربوية

أخطأ والدا مها فى سلوكهما نحوها على الرغم من أعتقادهما بأنهما على حق ، وأهم هذه الأخطاء

١ – اعتقاد الأبوين أن سلوكهما مع مها هو السلوك التربوى الصحيح واستمرارهما فى سوء معاملتها بدنياً ونفسياً دون مراعاة ما تعانيه الطفلة من العذاب النفسى ، وظنهما أن ما ترتكبه من أخطاء ما هو إلا نوع من العناد ، فكانا يبالغان فى عقابها

٢ – استمرار المقارنة بين مها وأختها علانية مع ذكر مواطن الضعف بها ومعايرتها بذلك ، أدى إلى زيادة كراهيتها لأختها . وإحساسها بالنقص والفشل ، وعدم قدرتها على النجاح مهما جاهدت مما أدى إلى رسوبها فانتابها الإحساس القاتل بالغيرة من أختها والحقد عليها حتى إنها كانت فى بعض الأحيان تؤذى أختها انتقاماً من والديها وفى نفس الوقت كانت تتهمها بالاعتداء عليها فيثار الشغب والمشاكسة اللذان ينتهيان دائماً بعقاب مها بأشد أنواع العقاب

٣ – عدم فهم مدرسات المدرسة لحاجاتها النفسية ، ومبالغتهن فى عقابها تلبية لرغبة والديها فى هذه الناحية مما أدى إلى كراهيتها للمدرسة والهروب منها فتأخرت دراسياً فى بعض المواد ، أما المواد الاجتماعية فكانت متفوقة فيها لحسن معاملة مدرستها لها ، وتقديرها لمشاعرها

٤ – استمرار سوء معاملة الجميع لها فى المنزل والمدرسة أدى فى النهاية إلى زيادة انحراف سلوكها واستمرار الفشل فى الدراسة ، الأمر

الذى دعا إلى طلب المشورة الطبية النفسية للعلاج

استمر علاج مها بالجلسات النفسية والأدوية المهدئة بالإضافة إلى توجيه الوالدين إلى كيفية معاملة مها فى هذه الظروف ، والاتصال بالمدرسات وتوجيههن إلى تقدير مشاعر الفتاة وتغيير أسلوب المعاملة لإعادة الثقة إلى نفس مها وفى من حولها

كانت « مها » تنتظم فى حضور الجلسات النفسية ، وكانت تشعر بسعادة كبيرة عند حضورها ، وتقدمت تقدماً ملموساً فى العلاج ، وساعد على ذلك رغبة الوالدين وتعاونهما فى العلاج ومساهمة المدرسة بدورها فى مساعدة « مها » بكل الوسائل المختلفة **شفيت مها** مما كانت تعانيه من الاضطراب النفسى وظهر ذلك فى تجاوبها فى دراستها وتحسن سلوكها مع أختها ووالديها ، وزال الشعور بالغيرة والحقد نحو أختها بعد أن حاول الوالدان تصحيح ما ارتكباه من خطأ فى هذه الناحية بتشجيعها وذكر النواحى الطيبة فيها وتنميتها

مما سبق نرى أن الخطأ الأكبر الذى يرتكبه الوالدان والذى يعتبر من أهم الأخطاء التربوية التى تؤدى إلى انحراف سلوك الأطفال هو مقارنة الأطفال ببعضهم ، ولا سيما حين يكون هناك فرق واضح بين طفلين فى نواح معينة أو كان أحدهما يتمتع بنواح خاصة فإن هذه المقارنة تخلق الغيرة بين الأطفال والغيرة شعور مؤلم يجعل صاحبه قلقاً أنانياً لا يستريح لنجاح غيره ، ويميل أحياناً إلى الانزواء والانطواء ، أو إلى الهجوم والتشاجر. والإيقاع بغيره ، ويشعر فوق ذلك أنه مظلوم

مضطرب ، وأن الناس يعملون ضده . وهذا يجعله قلقاً كثير الشك فى الناس ويلاحظ أن الأساس فى الغيرة فى أغلب الأحيان هو القلق والخوف وضعف الثقة بالنفس ، وقد تبدو بعض هذه المظاهر عند الطفل بطريقة مقنعة ، فهو يصب غضبه وغيرته أثناء لعبه بعروسة يسميها باسم أخيه أو أخته الصغرى التى تثير غيرته . وإذا لم يستطع الطفل أن يعبر عن نفسه بهذه التعبيرات فربما اتجه إلى الكذب أو الرغى بدون سبب أو تجاهل الآخرين ، وبخاصة الأفراد الذين يثيرون غيرته أو محاولة لفت الأنظار إليه بالتمارض .

واجب الآباء لمنع الغيرة ووقاية أبنائهم من الوقوع فى هذا الإحساس

١ – فى حالة ولادة طفل جديد لا يجوز إهمال الكبير وإعطاء الصغير عناية أكثر مما يلزمه ، فيجب ألا يعطى المولود إلا بقدر حاجته وهو لا يحتاج إلى الكثير ، والذى يضايق الطفل الأكبر عادة كثرة حمل المولود وكثرة الالتصاق الجسمى الذى يضر المولود أكثر مما يفيده ، وواجب الآباء كذلك تهيئة الطفل إلى حادث الولادة ، وكذلك يجب فطامه وجدانياً وتدريجياً بقدر الإمكان ، فلا يحرم حرماناً مفاجئاً من الامتياز الذى كان يتمتع به

٢ – يجب على الآباء والأمهات أن يقلعوا عن الموازنات الصريحة ، واعتبار كل طفل شخصية مستقلة لها استعداداتها ومزاياها الخاصة بها ، فإذا نجح طفل فى عمل ما ينبغى أن نشجعه ولا نوازنه بغيره ، وكل طفل مهما فشل له ناحية طيبة يمكن كشفها وإبرازها والاعتزاز بها وبذلك

يمكن أن يزول الشعور بالخيبة المؤدى إلى الشعور بالذلة والنقص

٣ – كذلك ينبغى على الآباء والأمهات ألا يبهرهم ما يقوم به بعض الأطفال من المبالغة فى طاعتهم أو تقليدهم ومسايرة آرائهم والعمل على إرضائهم والإعجاب بهم والتظاهر بالحب لهم ، إلى غير ذلك فلا يجوز لهم أن يؤيدوا هذا النوع على حساب الآخر صاحب الرأى الجرىء الحر ، وهذا الموقف من الأبناء كثير الانتشار وهو من أسباب غرس بذور الغيرة والحقد بين الإخوة وتنشئة بعض الأبناء على النقمة على السلطة والمجتمع عن طريق التحويل من النقمة على الوالدين وبعض أفراد الأسرة

٤ – الموازنة بين الطفل ونفسه فى أوقات مختلفة ، فإن تقدم فى وقت ما عما كان عليه فى وقت سابق فهذا كاف لتشجيعه

٥ – تنمية الهوايات المختلفة بين الأخوة كالموسيقى والتصوير وجمع الطوابع وغير ذلك ، وبذلك يتفوق كل فى ناحيته ويوازن نفسه بنفسه

٦ – المساواة فى المعاملة بين الأبن والابنة لأن التفرقة فى المعاملة يؤدى إلى شعور الأبناء بالغرور ، ويثير حفيظة البنات وتنمو عندهن غيرة تكبت وتظهر أعراضها فى صور أخرى فى مستقبل حياتهن ككراهية الرجال وعدم الثقة بهم ، وغير ذلك من المظاهر

٧ – عدم إغداق امتيازات كبيرة على الطفل العليل ، فإن هذا يثير الغيرة فى الأخوة الأصحاء ، وتبدو مظاهرها فى تمنى المرض وكراهية الطفل المريض ، أو غير ذلك من مظاهر الغيرة الظاهرة أو المستترة ،

فبذلك لا يجوز إعطاء الطفل أى اعتبار أكثر من العناية التى يتطلبها المرض

خلاصة ما تقدم ، ينبغى على الآباء والأمهات مهما كانت الفروق الفردية بين الأخوة لا يجوز استثارة الموازنات المؤدية إلى الغيرة ولكن هذا لا يمنع بالطبع من إجراء المباريات بين تلاميذ المدارس من آن لآخر ، مما يحفزهم لبذل الجهد ، وخلق الفرص أحياناً بتعويد التلاميذ تقبل الفشل المؤقت بصدر رحب أى على الروح الرياضية

كيف تخلصت هالة من الحلم المتكرر المزعج

حضر إلى عيادتى رجل متوسط العمر ومعه ابنته التى تبدو أنها فى حوالى الخامسة عشرة ، كان واضح الحزن والقلق ، كما كان من الواضح أيضاً أنه ميسور الحال وبادرنى بالقول

جئت إليك يا دكتورة لتعالجى ابنتى التى تنتابها نوبات بكاء شديدة وخوف ليس له مبرر ، ولا سيما حين تستيقظ من النوم فى الصباح الباكر ، إذ أنها اعتادت أن ترى أحلاماً مزعجة تسبب لها الصراخ ليلاً هذه الأعراض بدأت تنعكس على تصرفاتها فى المدرسة ، مما أدى إلى فصلها ، مع أنها كانت قبل ذلك مجتهدة ، جديرة بالثقة ، شديدة الشعور بالمسئولية . وقد بدأت هذه الأعراض بعد وفاة أمها منذ عدة شهور علماً بأن المشرفة الاجتماعية حاولت مرات متعددة أن تساعدها نفسياً ، ولكن عناد هالة وشغبها ازدادا ، حتى إنه لم يعد من الممكن

بقاؤها مع زميلاتها وما زالت تعانى من هذه النوبات التى تزعجنا جميعاً

ولما دخلت « هالة » إلى مكتبي أخذت تبكى بشدة وتولول من غير أن يكون هناك أى داع لذلك ثم قالت لى بين زفرات النحيب المتقطع إن الاضطراب بسبب حلم فظيع يراودها باستمرار أثناء نومها

وبطبيعة الحال سألتها عن مضمون ذلك الحلم فعرفت أنها ترى أمها التى ماتت منذ فترة وجيزة تظهر فجأة فى أحد أركان حجرة النوم ، ثم تتقدم نحوها ، وتجلس بجانبها على حافة الفراش وترفع يدها ببطء كأنها تهم بخنقها . وفى كل مرة كانت تصحو من نومها مذعورة وهى تصرخ صرخات الاستغاثة قبل أن تزهق أنفاسها

وبدراسة الحالة تبين ما يلى كانت « هالة » الابنة الأولى لزوجين مثقفين ميسورين لديهما من المال ما يكفى لرغد العيش ومن العلم ما يوفر لهما مكانة اجتماعية مرموقة وكان الأب والأم قد تزوجا عن حب عنيف وتفاهم تام ، ولم يمض العام الأول على زواجهما حتى رزقا بابنتهما « هالة » فأغدقا عليها ما يغدقه الأزواج المتحابون عادة على باكورة أولادهم من الرعاية والعناية غير أن سعادة الطفلة الصغيرة لم يكتب لها الدوام مع الأسف فبعد وقت قصير فوجئت الأم بأنها حامل للمرة الثانية فاضطرت إلى فطامها فجأة وبدون تدرج ومنعت عنها ثديها واستبدلت به الزجاجة ثم الكوب . . وعند ولادة الطفل الثانى عكفت الأم على إرضاعه مدة طويلة من الزمن ، وتلاه إخوة آخرون استأثروا باهتمام الأم

وبحلول الطفل الثانى أخذت أحوال « هالة » تتغير ، فلجأت إلى ممارسة عادات لم تكن تعرفها من قبل ، منها مص إصبعها بالليل والنهار ، وكذلك التبول على نفسها ليلاً بعد أن انقطعت تماماً عن ذلك ، ولم يفهم الوالدان سبب هذا التغيير وتصوراه لوناً من التمرد والعصيان ، فلجآ إلى الشدة والزجر ، وكثيراً ما وصل الأمر إلى حد القسوة ، غير أن غضبهما وتأنيبهما ذهبا أدراج الرياح وكان الأثر عكسياً إذ ازدادت الطفلة انغماساً فى هذه العادات السيئة مما ضاعف ثورة الوالدين عليها نظراً لأنها كانت غاية فى الذكاء سريعة الفهم متفوقة فى دراستها فلا يمكن أن يلتمس لها عذر فى ممارسة العادات السيئة وعصيان توجيهات أهلها

ومرت الأيام و « هالة » تكبر فتكبر معها متاعبها الدفينة وشاءت الظروف أن تضيف جديداً إلى أسباب قلقها واضطرابها ، وكان ذلك بسبب الخلاف الحاد الذى دب بين الزوجين المتحابين ، فأطاح بهدوء البيت وحرم الأبناء وعلى رأسهم « هالة » من الشعور بالاستقرار والطمأنينة وتضاعف شقاء الأم وبكاؤها إلى أن أدى ذلك إلى إصابة الأم بمرض ألزمها الفراش مدة طويلة قبل موتها

وذكرت « هالة » حادثاً معيناً حدث قبل وفاة أمها مباشرة فحين كانت أمها فى المرحلة الأخيرة من مرضها ، شجعتها إحدى صديقاتها بأنه لا لوم عليها إذا استولت على بعض ثياب أمها لأنها ستموت قريباً وبعد موتها لن يكتشف أحد هذه السرقة ويمكنها التصرف فى الثياب وبيعها واقتسام ثمنها وفى صباح الغد حضرت صديقتها لتأخذ الثياب

وكانت لم تزل فى دولاب الأم بحجرة نومها ، ولكن « هالة » كانت مترددة لا تستطيع أن تستقر على رأى فى الموضوع وحاولت أن تقاوم إغراء صاحبتها لها بالسرقة إلا أن صاحبتها استطاعت أن تقضى على ترددها ، وهونت عليها الأمر فانقادت « هالة » لإغراء صاحبتها ودخلت حجرة أمها ، وبقيت صاحبتها على باب الحجرة تشجعها وتشد من عزمها بإشارات من رأسها كلما رأتها مترددة وكانت الفتاة قد أخذت مفتاح الدولاب معها ولكنها وجدته مفتوحاً وعند فتحه أحدث صريراً ، فسقط المفتاح من يدها واستولى عليها ذعر شديد خشية أن تتقلب أمها وهى على فراش الموت فتراها ، وخطفت على عجل ما وقع تحت يدها وأسرعت فألقت بالمسروقات إلى صاحبتها التى انطلقت بالمسروقات بعد أن وعدتها بالحضور فى اليوم التالى ريثما تبيع الثياب وفى اليوم التالى كانت الصديقة قد باعت الثياب فعلاً وحضرت فى الموعـد ولكنهما بدلاً من أن تتقاسما الغنيمة قررتا التوجه إلى مدينة الملاهى وما تبقى بعد ذلك من النقود أنفقتاه فى أحد محال الحلوى

ولم تفكر الفتاة فى أمها التى تركتها بمفردها على فراش الموت بل انصرفت انصرافاً تاماً إلى أسباب اللهو مع صاحبتها ولما عادت إلى البيت وجدت أمها قد لفظت أنفاسها الأخيرة ، ولم يحزنها موتها إلا أنها غضبت لوجود أقاربها فى البيت وانقضاضهم عليها بالملام والتقريع بقسوة وبدلاً من أن تخجل من نفسها صعرت خدها ورفضت أن تخبرهم أين كانت ، ولم تشعر بأى تأنيب لما أقدمت عليه من السرقة ولما اكتشف الأقارب العبث بالدولاب اتهموا أشخاصاً آخرين بالسرقة

ولم تشعر بوخز ضميرها ، ولم تكترث باتهام الأبرياء

كانت « هالة » أثناء ذكرها كل هذه الحقائق تبكى بكاء مرًّا ، وصارحتنى بأنها لم تعد تطيق هذه الذكريات المؤلمة ، ولا ذلك الحلم المزعج الذى صار يراودها بصورة متكررة وذكرت أنها لم تذكر شيئاً للمشرفة الاجتماعية خشية أن تكف عن حبها بعد ذلك بسبب قسوتها على أمها

استمرت « هالة » تتردد للعلاج عدة شهور ، أمكننى من خلال الجلسات النفسية أن أساعدها على التخلص من الإحساس بالندم والشعور بالذنب ، مما أدى فى النهاية إلى اختفاء الحلم المزعج المتكرر الذى يراودها بصورة متكررة ، وفى نفس الوقت وجهت الوالد إلى الأسس التربوية الصحيحة فى طريقة معاملتها فى المواقف المختلفة مع إغداق الحب والعطف والتشجيع فى هذه المرحلة الدقيقة من حياتها

ومما ساعد على نجاح العلاج–بالإضافة إلى تعاون الوالد وحرصى على إعطائها بعض الأدوية المهدئة التى يمكن أن تساعدها على التحكم فى انفعالاتها أن استدعيت المشرفة الاجتماعية . وبعد أن بينت لها الوضع أظهرت استعداداً حسناً للإدراك والعطف فكانت تقضى معها كل ليلة – حسب توجيهاتى إليها – فترة طويلة قبل النوم تشجيعاً منها على التحدث عن أمها ، مما جعل خوفها من الحلم المفزع يقل تدريجاً حتى اختفى

وبذلك أمكن من خلال الجلسات النفسية تخليصها من متاعبها النفسية واستقر سلوكها فى المنزل ، وعاد إليها اتزانها النفسى ، وانتظمت

فى المدرسة ولم يحدث منها أى شغب أو إزعاج بعد ذلك وعادت إلى سابق عهدها فى المدرسة بالنجاح والتفوق

الأخطاء التربوية

تبين من حالة « هالة » أنها فى طفولتها الأولى شعرت بالحرمان من حب الأمومة بعد ولادة الطفل الثانى هذا الحب الذى يعتبر الحب الكبير فى حياة كل إنسان ، بل هو الغذاء النفسى الذى يساعد على نموه العاطفى . ففقدان هذا الحب « لهالة » أصابها باضطراب نفسى شديد ، بصدمة عاطفية شديدة تصورت معها أن أمها تكرهها ، ولا تريد أن ترضعها ، ولصغر سن « هالة » وقصر إدراكها لم تستطع أن تعبر عما فى نفسها أو تفهم معنى لما حدث ، أو تجد مسوغاً له ، فترسبت عقدة الحرمان مبكراً فى قرارة عقلها الباطن ، واختفت بين تلافيفه المتعددة لتزداد حدّة بما حدث بعد ذلك عندما ولد الطفل الثانى ونال من الحب ما حرمت هى منه وكانت الأعراض التى ظهرت هى التعبير عن الاضطراب النفسى الذى كانت تعانيه نتيجة هذه الأحداث

وكذلك فإن ارتكاب هالة لسرقة ملابس أمها وهى على فراش الموت ثم توجهها مع صديقتها إلى مدينة الملاهى غير مكترثة بحالة أمها ، هذا التصرف هو التعبير السافر عن الاضطراب النفسى والانتقام من أمها التى أهملتها فى طفولتها فالاضطراب النفسى يؤدى إلى الانحراف فى السلوك فالطفل حين يتعرض لظروف قاسية فى طفولته المبكرة ينشأ ولديه شيء يظل كامناً فى نفسه ، وتقوم الظروف غير المناسبة بإظهاره

على شكل انحراف سلوكى فهناك إذن عنصر نفسى فى الطفل لولا وجوده لما كان للبيئة السيئة أى تأثير عليه ، وهذا ما سمى بالاستعداد للانحراف ، تساعد على تكوينه الأحداث المتكررة فى الطفولة الأولى ، وهذا ما حدث فى حالة « هالة » إنها عانت فى طفولتها الحرمان من العطف والحب والحنان وسوء المعاملة فكبتت هذا الحرمان بداخلها إلى أن تقابلت مع صديقتها ، فأثارت الانحراف الكامن ، وبدا بصورة سافرة فى نظرتها فى حادث السرقة ثم انحرافها السلوكى فيما بعد بالمدرسة الذى أدى فى النهاية إلى فصلها وهذا الانحراف فى السلوك يدل على عدم التوافق بين العمليات النفسية من شعورية ولا شعورية مما يؤدى فى النهاية إلى التعرض للأحلام المزعجة المتكررة وهذا ما حدث لهالة

لذلك كانت مهمتى الأساسية فى علاجها هى إضعاف الميل الكامن نحو الانحراف ، والبحث عن العوامل التى أدت إلى ظهور الانحراف ، سواء فى المدرسة أو المنزل . وليس فقط القضاء على المظاهر السافرة لذلك الانحراف.

التحليل النفسى للحالة

ارتكب الأهل فى هذه القصة أخطاء غير مقصودة ولكنها دمرت نفسية الطفل الحساسة

١ – فحرمان الفتاة من الرضاعة فجأة وبدون تدرج أدى إلى إحساسها بفقدان الحب الذى أوصلها إلى الاضطراب النفسى فى السنوات الخمس عشرة من عمرها

٢ – حين ظهر اضطراب الفتاة النفسى مصّ أصابعها والتبول

اللاإرادى لجأ والدها إلى القسوة والزجر والعقاب بدلاً من مضاعفة الحنان واستشارة الإخصائيين

ولا شك أن الزجر والعقاب والقسوة ضاعفت فى الاضطراب الذى أدى إلى الحرمان العاطفى ، الأمر الذى دفعها فى النهاية إلى ارتكاب السرقة كنوع من التعبير عن الانتقام

٣ – عدم تفهم المدرسة لحالتها وعدم محاولة دراسة الوضع للوصول للدوافع النفسية الكامنة وراء السلوك المنحرف ، بل لجأت المدرسة إلى القسوة وفى النهاية فصلتها

٤ – سوء معاملة المحيطين بها فى البيت لانحراف سلوكها فى المنزل والمدرسة وعدم تعاونهم معها ومحاولة فهم حاجاتها النفسية فى مرحلة هى فى أشد الحاجة إلى الفهم والحب اللذين حرمت منهما على مدار خمسة عشر عاماً

٥ – الاضطرابات الأسرية التى كانت تحدث بين حين وآخر قبل وفاة الأم جعل الفتاة تفقد الإحساس بالأمن والطمأنينة والشعور بالانتماء ، مما أدى إلى الاضطراب النفسى والانفعالى اللذين ظهرا فى شكل الانحراف السلوكى

مما سبق نرى أن الانحراف السلوكى الذى يصيب أطفالنا أو شبابنا يكون له دائماً جذور عميقة فى مراحل الطفولة المختلفة ، يظهر أثرها بصور مختلفة فى مراحل العمر المختلفة فالاستعداد للانحراف يظل كامناً ولا يظهر إذا كانت البيئة التى يعيش فيها الطفل هانئة متفهمة لحاجاته النفسية فى كل مرحلة أما إذا كانت البيئة مضطربة مفككة

يسودها سوء المعاملة والأنانية فإن الانحراف الكامن يصبح سافراً وبصورة تؤدى إلى ضرورة الالتجاء إلى المشورة الطبية النفسية والعلاج بصورة عاجلة كى نجنب الطفل أو الشاب النتائج المدمرة لهذا الانحراف

الحب يضىء لها طريق الحياة

جاءت الأم إلى العيادة ومعها ابنتها « وفاء » البالغة من العمر خمسة عشر عاماً تطلب المساعدة والعلاج لابنتها التى تأتى أعمالاً وسلوكاً غير طبيعيين فهى اعتادت أن تهرب من المنزل ومن المدرسة ، وتنتابها نوبات صراخ بالليل تقوم على أثرها فى حالة فزع شديد ، يضاف إلى ذلك أنها كانت تتبول لا إرادياً ليلا منذ طفولتها حتى هذه السن

وبدراسة الحالة تبين ما يلى

نشأت « وفاء » فى أسرة متوسطة الحال ، فهى البنت الثالثة من ثلاث بنات كانت تعيش مع والدين غير متحابين وغير متفقين ، دائماً فى خلاف وشقاق ، إذ أن زواجهما قد تم تحت ظروف لم يتعرف كلاهما على بعض قبل الزواج ، وكانت النتيجة أنهما مختلفان فى النواحى الفكرية والاجتماعية والعاطفية إلخ الحالة المالية للأسرة غير متيسرة ، فالوالد موظف بأحد محال القطاع الخاص يتقاضى مرتباً لا يغطى مصاريف الأسرة فيضطر إلى الاستدانة فى معظم الأوقات ، فيؤدى ذلك إلى الخلافات المستمرة بين الزوجين

كان الوالد رجلاً ديكتاتوراً فى منزله قاسياً غير عطوف ، الكلمة

كلمته ، والرغبة رغبته والويل لمن يناقشه حقه فى فرض إرادته
لأنه كان يعتقد فى نفسه أنه أقوى وأعقل وأبعد نظراً من الناس كلهم ،
كرامته الشامخة كالجبل الأشم لا تقبل له أن ينزل إلى مدارك الاعتذار
عن غلطه أو الرجوع فى رأى أو مجرد حكم أو أمر يصدره أمثال هذا
الرجل المتعنت فى تقديره لنفسه يمحون شخصية كل من حولهم ، وهو
ما حدث بالضبط فى أسرة وفاء ، فأمها كانت امرأة سلبية لا تجرؤ على
الوقوف أمام زوجها فى أبسط الأمور ، تؤمن به إيماناً راسخاً وتجيب
رغباته حرفيًا ولا تهتز لألوان بطشه بأنيابه وسيطرته التامة على حياتهم كأنهم
عرائس خشبية يحرك خيوطها بأصابعه الصلبة ومع ذلك فى بعض
الأحيان كانت تنتابها نوبات تحتج فيها على هذه المعاملة التى لا يرتضيها
إنسان له شيء من الكرامة وكانت هذه المناقشات الحادة تحدث أمام
الأطفال غير مبالين لما لهذا السلوك من تأثير نفسى سيئ عليهم

كانت الأم تعتقد دائماً أن وفاء طفلة متهورة غير ناضجة لا يعتمد
عليها فى أداء أى عمل حتى بلوغها الخامسة عشرة من عمرها ، وتشكو
دائماً من عنادها وإصرارها واندفاعها فى تصرفاتها مما يؤدى إلى فشلها
فى كل شيء ، حتى إن الوالد كان يطلق عليها أسماء منفرة « كالملعونة »
ويضربها ضرباً مبرحاً إذا هى أخطأت فى أى شيء ، وفى نفس الوقت
يغدق على أختها الثانية المديح لحسن سلوكها ويقارنها دائماً بها فتزداد
كراهية لنفسها ولوالدها ولأختها ويظهر ذلك فى استمرار الانحراف
فى سلوكها

استمرت حياة « وفاء » فى هذا الجو غير المتفهم لحاجاتها النفسية

بين أب قاس ، غير عطوف انعدم فيه الإحساس بالحنان ، وأم سلبية لا مبالية لا تهتم بها وبحاجاتها ومشاعرها وبين إخوة مبتعدين عنها حاقدين عليها

وأخيراً أشارت على الأم إحدى صديقاتها بعرضها للفحص الطبي النفسي كي يساعدها على تعديل سلوكها وعلاجها من الاضطرابات السلوكية الواضحة فاستجابت الأم لهذه المشورة وحضرت إليّ لعلاجها

كانت وفاء صغيرة الحجم ، ولكنها جميلة بدرجة تلفت الأنظار ، بيضاء البشرة فاحمة الشعر خضراء العينين ، رقيقة تتكلم بصوت هادئ ليس فيه لفظ خشن أو جرىء أو مبتذل كان يبدو عليها القلق وعدم الاستقرار كانت « وفاء » أثناء سردها للأحداث والمعاناة التى تلاقيها فى المنزل من قسوة وعقاب وضرب وإهانة من كل أفراد الأسرة ، تبدو الدموع فى عينيها وتنساب على خدها من شدة تأثرها بما يدور حولها كانت تبرر هروبها من المنزل لتتخلص ولو لفترة من العذاب الذى تلاقيه أثناء وجودها به ، إذ كانت تلجأ إلى إحدى صديقاتها لتمكث معها فترة ، ثم تعود إلى منزلها فى المساء فتلاقى قسوة الأب وحنقه عليها

أما فى المدرسة فكانت المدرسات يعاملنها بقسوة حسب رغبة الوالد ظنًّا منه أن ذلك يحسن من سلوكها ويجبرها على المواظبة والدراسة ، فكانت النتيجة أنها كانت تهرب من المدرسة أيضاً . . وتأخرت فى الدراسة .

كان استعداد وفاء للعلاج النفسى كبيرًا جداً ولم تتخلف ولو مرة واحدة عن مواعيد الجلسات التى أقررها لها ، وكانت تشعر بسعادة كبيرة عند حضورها بأنها وجدت من يشعر بوجودها ويحميها من البيئة الطاغية

التى تعيش فيها

كان يصاحب العلاج النفسى لوفاء توجيه الوالدين إلى الأسلوب الصحيح فى معاملتها وأوضحت لهما الأخطاء التربوية التى ارتكباها حقها من الناحية النفسية ، ونصحتهما بتغيير معاملتهما وإغداق الحب العطف عليها اللذين افتقدتهما منذ طفولتها كان الموقف فيه شىء من صعوبة لمقاومة الوالد وعدم اقتناعه بتغيير أسلوب معاملته لها الذى كان يؤمن بصلاحيته ، ولكن بمحاولتى إقناعه وبالمناقشة العلمية ، وافق بعد مقاومة شديدة على المحاولة فى سبيل التجربة لاتباع الطريقة المطلوبة منه

وحين وجد الوالد أن النتيجة فى التحسن ظهرت بصورة مرضية وسريعة تشجع فى استمراره فى اتباع الأسلوب المتفهم الواعى الذى يمنح الحب والعطف والحنان لوفاء ، والاهتمام بالنواحى النفسية ومراعاتها

وبعد فترة قصيرة من العلاج النفسى وبعض الأدوية المهدئة وتوجيه الوالدين ومعرفتهما الأخطاء التربوية التى كانا يرتكبانها دون قصد فى تنشئة وفاء تحسنت حالتها وأصبحت فى حالة نفسية هانئة هادئة ، واعتدل سلوكها وزال الانحراف وتوقف الهروب من المنزل والمدرسة وتوقف التبول اللا إرادى وأصبحت من المتفوقات فى الدراسة

الأخطاء التربوية

هناك بعض الأخطاء التربوية ارتكبها الوالدان نحو وفاء دون قصد فى طريقة تنشئتهما لها

١ — ديكتاتورية الأب وقسوته المتعنتة فى معاملة وفاء وعدم محاولة

تفهم حاجاتها النفسية بأفق واسع ، بل اتجاهه إلى أسلوب العنف والسب والضرب مما زاد فى اضطرابها

٢ - تفضيل الوالد للأخت الثانية واستمرار الموازنة دائماً بينهما أدى إلى كراهية وفاء لأختها الأمر الذى كان يؤدى فى بعض الأحيان إلى الشجار الحاد بينهما

٣ - سلبية الأم وعدم منحها الحب والحنـان لوفاء ، وانحيازها للأخت الثانية فى معظم الأحيان زاد من توتر نفسية وفاء وكراهيتها للجميع حتى نفسها وأصبحت تشعر بعدم الانتماء إلى الأسرة مما دعاها إلى الهروب من المنزل ، وتفضيلها البقاء عند صديقتها وقتاً طويلاً

٤ - سوء تصرف الوالد بتحريضه لمدرسات المدرسة لضربها وعقابها بشدة مما أدى فى النهاية إلى هروبها من المدرسة

٥ - يضاف إلى ما سبق الخلافات الأسرية الشديدة التى كانت تنبع من ديكتاتورية الوالد ولعدم وجود التفاهم بين الزوجين لاختلافهما فى المفاهيم مما سبق نرى أن وفاء فقدت الحب والحنان والعطف ، وحرمت من الدفء الأسرى والإحساس بالانتماء ، فانحرف سلوكها وساء تكيفها ، مع بيئتها - المنزل والمدرسة - وأصبحت فى حالة نفسية مضطربة ، كان ذلك التأثير يظهر فى سلوكها غير الواعى

فعلى الآباء والأمهات ألا يحرموا أطفالهم من حبهم فالحب هو الغذاء النفسى للطفل الذى تنمو وتنضج عليه شخصيته فالحب الواعى المستنير يقتضينا أن نبدأ أولاً بإحاطة الطفل بجو من الدفء ، دفء شعورنا وحناننا وإقبالنا ، وبإعطائه من أنفسنا بسخاء ، فإن ذلك خليق

بأن يملأه ثقة واطمئناناً إلينا ، وبالتالى ثقة بنفسه واطمئناناً إلى العالم حوله ، وهو فى أشد الحاجة إلى هذه الثقة لكى يخطو الخطوة التالية فى مسيرته نحو النضج

فإذا شئنا أن ينشأ أبناؤنا على الثقة والاطمئنان وأن يتجهوا إلى العمل البناء فى تعاون وإيثار وأن يجدوا السعادة فى البذل والعطاء ، فلنعطهم الحب أولاً ، لنعطهم الحب الواعى المستنير اليوم إذا شئنا لهم أن يعطوه لنا بدورهم فى غد نعطيهم الحب ، فإن فاقد الشىء لا يعطيه ليكن حبنا لهم حب الإيثار لا الأثرة — ، حب العطاء لا الأخذ ، حب التضحية والبذل ، الحب الذى ننسى أنفسنا فيه دائماً ، ونذكرهم فيه أبداً ، حتى نمهد لهم السبيل ليكونوا الأفراد الذين نعتز بهم ويفخر الوطن بأعمالهم



الجزء الثانى

تأثير البيئة فى التنشئة النفسية للطفل

تؤدى البيئة العائلية دوراً هاماً فى توجيه سلوك الطفل ومساعدته على أن ينظم دوافعه الوجدانية وعلى أن يكتسب العادات الحميدة التى تقوى الخلق . ومن أهم هذه العادات ضبط النفس وحب النظام . وغنى عن القول أن النظام الذى ينشئ الوالدان الطفل عليه لابد وأن يكون مشبعاً بروح الإنصاف والعطف والتعاون . أما التنشئة التى تسودها روح التعسف والزجر والاستبداد فإنها تؤدى حتماً إلى ظهور الاتجاهات الشاذة المعوجة وإلى تفاقم النقائص الصغيرة التى قد تشوب سلوك الطفل والتى كان من الممكن تجنبها أوإصلاحها بشيء من حسن التدبير والفهم والعناية

فالطفل الذى ينحرف سلوكه عن الطريق الذى يتلاءم مع مقتضيات الوضع السوى هو فى معظم الأحيان ضحية بيئته العائلية ، وإذا استثنينا حالات العته والبلاهة التى ترجع عواملها إلى الوراثة المرضية ، يمكن القطع بأن جميع الانحرافات النفسية تقع تبعتها على البيئة العائلية أو الاجتماعية ومن اليسير التأكد من صحة هذا الرأى ، فإن آلاف الحالات التى تتردد على العيادات النفسية تبين لنا بوضوح التأثير السيئ الذى تتركه فى نفسية الطفل البيئة العائلية التى يشيع فيها الفساد والشقاق وسوء التدبير

وفى الحقيقة ، فإن المرض النفسى فى صميمه ليس إلا علاقة مضطربة

بين الفرد والبيئة يضيع فيها الانسجام ويضطرب التوافق وتنال بآثارها المؤذية الفرد والبيئة معاً ، وأن اضطراب التوافق هذا يرجع عادة إلى الأيام الأولى من الحياة حين يبدأ الفرد رضيعاً فطفلاً يتحسس أولى خطواته فى التوافق مع البيئة المباشرة الأبوين والإخوة فهذه العلاقة خلال السنوات المبكرة من الحياة تثير فى نفس الصغير ألواناً من الخبرات والصراعات التى لا تتركه أبداً وتظل تؤثر فى دوافعه وسلوكه برغم كبتها فى اللاشعور ، وبالتالى عدم إدراكه إياها على مر الأيام والسنين ، مقررة له أنواع العلاقات التى سوف يقيمها فيما بعد فى المدرسة والعمل والزواج والمجتمع ، كما تحدد موقفه فى مختلف المشكلات الخاصة فيها والعامة ، التى سوف تقابله وترسم السمات البارزة لشخصيته ، من إقبال على الناس وتعاون معهم أو عداء وتحد لهم ، أو انسحاب وبعد عنهم

أثر الأسرة المفككة

يؤثر سلوك كل من الأبوين تجاه الآخر على صحة الطفل النفسية ، وقد أثبتت البحوث أن معظم الأطفال المشكلين يأتون من منازل تكثر فيها الاحتكاكات الزوجية أكثر ممن يأتون من منازل فيها علاقات سليمة ومن دواعى تفكك الروابط الأسرية مشاجرات الوالدين ، واختلافهما ، وربما كان هذا راجعاً إلى سوء الحالة الاقتصادية ، أو إلى الاختلاف على طرق تربية الأبناء أو إلى اضطراب أحد الوالدين أو كليهما نفسياً على نحو لا يجعلهما قادرين على مقابلة تبعات علاقة وثيقة كالزواج ومسئولية كبيرة كالتنشئة مقابلة ناجحة ، وهذا كله يجعل جو المنزل أحياناً

جوًّا ثقيلاً لا يطاق ، فيهرب منه الطفل إلى الشارع حيث يحتمل أن يبدأ سلسلة من سلوك غير مرغوب فيه وإن لم يتمكن من الهرب إلى الشارع فنى أحلام اليقظة متسع لفراره من الواقع ، وأحياناً يصب أحد الوالدين جام غضبه على الطفل نفسه وكل هذا يقلل من ثقة الطفل فى قوة الكيان العائلى ، ويحتمل بالتالى أن يقلل ثقته فى نفسه ، وأن يجعل ثقته معدومة فيمن يتصل بهم فى الحياة بعد ذلك

وقد يحدث التفكك بسبب وفاة الأب أو وفاة الأم إذ يترتب على ذلك أحياناً أن تظهر للطفل زوجة أب أو زوج أم أو أخوة غير أشقاء ، وقد يحدث التفكك عن طريق الطلاق أو الانفصالات المؤقتة أو الدائمة وبذلك يتعرض الأطفال إلى مختلف الخبرات والتجارب القاسية والإحباط المتواصل الذى يدفعهم إلى الانحراف و « الانحلال الخلقى » من مظاهر تفكك الأسرة وقد يكون نتيجة للفقر والحرمان الذى قد يدفع الوالدين إلى سلوك طريق الجريمة والطفل الذى يعيش فى مثل هذا الجو قد يمتص هذا المثل السيئ عن والديه ويفقد الاحترام لنفسه والقيم الأخلاقية عامة ويعيش متردداً بين الظلم والقسوة والمهانة والخوف والعدوان ، ومن ثم يندفع إلى التعبير عن ذلك بمسالك غير مرغوب فيها اجتماعيًّا

ولازدحام المسكن أثره كذلك على جوانب الحياة الإنسانية ، فإنه فضلاً عن آثاره بالنسبة للبدن ، فإن له أضراراً أخرى بالحياة النفسية الداخلية والسلوك الاجتماعى للفرد والصغار أكثر تأثراً بمثل هذه الحياة التى تعرقل نموهم النفسى وتؤدى إلى اضطرابات الشخصية والتى

تتمثل فى مظاهر عدم النضج وتأخر الاستقلال والاستجابات الصحية المضادة للمجتمع والثورة لأقل الأسباب والتجارب الجنسية المبكرة فالأسرة التى تعيش فى حجرة واحدة ، هذه الأسرة لا تستطيع أن تمنع أطفالها من الاطلاع المبكر على العلاقات الجنسية ، فتشغل أذهانهم بها دون فهم لحقيقتها ، وتدفعهم إلى الممارسة المبكرة لألوان مختلفة جنسية ونفسية تؤثر على سلوكهم مستقبلاً

ومن أصعب المشكلات التى تواجه الآباء مشكلة تكوين اتجاهات وعادات جنسية سليمة ، إذ أن كثيراً من الآباء يحيطون الأمور الجنسية بجو من الغموض والأسرار حتى إن أطفالهم يندفعون إلى معرفة هذه الأمور من مصادر مريبة يتعذر بعدئذ تكوين اتجاهات سرية تجاه أمور الجنس ، فينبغى أن نشجع الأطفال على تناول أمور الجنس فى صراحة ويلا خجل شأنه شأن المسائل الأخرى ، على أن نساعدهم على تنمية الإحساس بالحياة بشرط خلوه من مشاعر الخجل أو الشعور بالذنب أو السرية ، ولا شك أن الأطفال سيصبحون عاجلاً أو آجلاً مشوقين إلى معرفة من أين يأتى الصغار ؟ فلا ينبغى أن نقابلهم بالرفض أو التخلص ، بل نجيب بالطريقة التى تتناسب مع قدرة الطفل على الفهم لأن الأطفال سرعان ما يكتشفون ما هى الإجابات الصحيحة ، ويفسرون تفسيراتهم الخاطئة على أنها حيل أو خداع ، وفى كلتا الحالتين يفقد الأبوان فرصة كان يمكن بها أن يكونا عوناً للطفل

القسوة والعقاب فى معاملة الطفل

لاشك أن القسوة والتربية الصارمة تؤدى إلى خلق ضمير أرعن وتولد الكراهية للسلطة كل من يمثلها وتجعل الطفل يقف من المجتمع عامة موقفاً عدائيًّا أو يستسلم أو يرى الخلاص فى تملق الكبار أو الخضوع لهم ، وتميت فى نفسه الثقة بالنفس وتقتل روح المبادأة وتجعله يتحاشى القيام بأى عمل يدافع به عن نفسه

وليس التراخى فى معاملة الصغار بأقل ضرراً من القسوة ، فقد ثبت أن الطفل الذى ينشأ فى تراخ وتهاون ويظهر عليه من الاضطرابات الشخصية والسلوك اللاسوى ما يظهر على الطفل الذى نشأ على القسوة والتزمت فى المعاملة

ومن أشد الأمور خطراً على الطفل التقلب فى المعاملة بين اللين والشدة ، فيثاب على عمل مرة ويعاقب على نفس العمل مرة أخرى ، ويجاب طلبه مرة ويحرم منه أخرى ، دون سبب معقول ، والتقلب فى المعاملة يجعل الطفل فى حالة قلق وحيرة ، وتهتز ثقته بوالديه ، وقد يدفعه إلى الكذب والنفاق

والإكثار من التخويف له آثاره النفسية الخطيرة وقد ينعكس المكبوت فى سن مبكرة على حياة الطفل عندما يكبر يخشى الناس أو لا يرضى أبداً عن عمل يعمله ويصبح دائم القلق

والإسراف فى التدليل له عواقب متعددة منها الشعور بالنقص وفقد الثقة بالنفس وقتل روح الاستقلال وتحمل المسئولية ويحب التفرقة

بين التدليل والعطف ، فني العطف أخذ وعطاء ، أما في التدليل فالطفل يأخذ دون أن يعطى ، والعطف ألزم ما يجب أن يحاط به الطفل فهو الموازن الطبيعي الذى يشد به الصغير حيال الكبير ويبعث فى نفسه الشعور بالأمن والطمأنينة اللذين يحتاج إليهما ، ولكى نعطف على الطفل ونحبه بالرغم مما نراه فيه من عيوب يتعين علينا أن نفهمه ، فمعرفة الطفل شرط ضرورى لتربيته غير أننا كثيراً ما ننظر إليه بأعيننا لا بمنظاره هو فنحاسبه كما لو كان كبيراً ، ونفرض عليه أوامر لا يفهمها ويرى فيها نوعاً من التعنت فالواجب أن يحل التفاهم والفهم والإقناع محل الأمر والنهى ، وأن نفرض عليه الحرمان إذا اضطررنا على درجات وفى رفق حتى لا يلجأ الطفل الضعيف إلى الكبت أو الجنوح باعتباره الوسيلة لحل الصراع الذى يخلقه الحرمان

وفى ضوء كل هذه العوامل يمكن أن نفسر أسباب الظواهر النفسية المتعددة وبعض مظاهر الانحراف التى تصادفنا فى بعض الأفراد كالطفل الميال للعدوان والطفل المغرور والخجول والطفل الشرس والمنطوى والجانح فى أى صورة من صور الانحراف ، كما يمكننا أن نفسر عوامل تكوين الطفل الناجح والطفل الطبيعى فى تصرفاته وسلوكه والطفل الممتاز فى خلقه والمعتدل فى طباعه وهكذا

وأياً كان الحال ، فالطب النفسى للأطفال الذى يعتبر من معالم الحضارة الراهنة ، وأصبح علماً قائماً بذاته له أصوله ومبادئه العلمية ، وقد زادت الحاجة إليه فى السنوات الأخيرة ، فهو يهدف إلى اكتشاف وعلاج الأمراض النفسية للأطفال فى مرحلة مبكرة ما أمكن ذلك وكذلك

يهدف إلى تجنب الإصابة بالمرض النفسى فى مرحلة متأخرة وذلك بالعلاج المبكر وبالمساهمة فى تقويم الوسائل التربوية الخاطئة التى تؤثر فى النمو النفسى السليم للطفل ، إذ أن كثيراً من الاضطرابات النفسية للأطفال كما ذكرنا ترجع فى بعض أسبابها لمؤثرات أسرية أو بيئية غير مناسبة ، فتقويم المعوج منها يكون جانباً هاماً من أهداف الطب النفسى للأطفال

مما سبق ، نرى أن الأسرة هى البيئة الأولى للإنسان ، البيئة التى تمده بالمحفزات فى كفاحه الدءوب نحو التكيف أو تقويم المعوقات دون ذلك الكفاح ، لذلك فإنه من البديهى أن تحقيق النضج الانفعالى ، أى الوصول إلى صحة النفس ، لا يمكن أن يتم إلا من خلال طفولة منحت الحب والحنان والقدوة الطيبة والطمأنينة فإنه لن يستطيع أحد غير الوالدين تزويد الطفل بذلك الغذاء الوجدانى الذى لا غنى عنه لصحة النفس. وما انتشار الأمراض النفسية فى مظاهرها المتعددة إلا دليل على أن بيوتاً كثيرة لم تستطع أن تحيط صغارها بالحب والطمأنينة اللذين بدونهما سيشبون على سقم واعتلال فإن الذى لم يحصل إلا على القليل من الحب فى سنيه الأولى سيظل متعطشاً إلى المزيد من هذا الغذاء الوجدانى ، شاعراً بالحرمان من حقه من أن يحب ، عاجزاً بدوره عن أن يحب

لماذا يخطئ الآباء فى التنشئة النفسية للأبناء

« حاول أن تدرب طفلك على النهج الذى ينبغى عليه أن يسلكه ، فحين يصبح مسناً فسوف يظل متمسكاً به »

هذا قول مأثور قاله أحد الخبراء فى تنشئة الأطفال ، فهل هذا صحيح وهل يتمكن الآباء الصالحون من تنشئة أطفال أسوياء لا يسببون لهم المعاناة والمتاعب فيما بعد ؟ والإجابة السليمة على هذا السؤال كثيراً ما تدعو إلى الشك فى تحقيق ذلك فالآباء الصالحون الذين أعنيهم ، هم هؤلاء الذين يأخذون الأمور بصفة جادة ، ويتصفون بالعطف والذكاء ، ويشغلون مكانة مرموقة ومع ذلك فهؤلاء الآباء على الرغم من الاعتدال والحكمة التى يتصفون بهما فإنهم كثيراً ما يحاولون التفكير فى البحث عن الأسباب التى أدت إلى اضطراب أطفالهم نفسياً فالابن الأكبر أنانى والثانى مضطرب السلوك والثالث غير متكيف مع البيئة التى تحيط به والرابع مهموم متكدر لا يتذوق للحياة طعماً ، فيحاول الآباء دائماً معرفة الدوافع التى ساقت إلى ظهور هذه الأعراض ، وغالباً ما يتجه تفكيرهم إلى الاعتقاد بأن ما حدث لأبنائهم كله نتيجة خطأ اقترفوه فى التنشئة النفسية للطفل ولذا كان من الأهمية بمكان البحث عن الإجابة الصحيحة عن سؤال العائلة الهام وهو

لَمَ لم نتمكن من تدريب الطفل على النهج الذى ينبغى عليه أن يسلكه ، فالأطباء النفسيون والإخصائيون النفسيون لديهم الإجابات

الكثيرة التى تتبلور فى إجابة واحدة ، فبعد التحليل النهائى تبين أن مصدر متاعب الآباء والأمهات مع أطفالهم أن أكثر الآباء لم يصلوا بعد إلى المفهوم الدقيق والوعى التام الذى يمكنهم من التخلص من هذه المتاعب على طول المدى

فالآباء ليست لديهم الصلاحية الواجب توافرها بمعنى أنهم يحملــون أثر المعوقات التى كانت قائمة فى بيئتهم الشخصية والتى يتوارثونها من حيث الاستعداد النفسى وكذلك يحملون أثر الأخطاء والمفاهيم المتزمتة التى كانت سائدة فى عصرهم فالآباء كأى فرد غير معصومين من ضعف الإرادة ، فظهور الآباء على حقيقتهم التى يحاولون إخفاءها أمام أطفالهم سوف يكشف حتماً عن الكثير الذى كانوا يتمنون إخفاءه كى يتجنبوا تأثيره على حياة أطفالهم إذا تمكنوا من ذلك حقًّا إن من الصواب أن نخفى عيوبنا التى تزعجنا بداخلنا دون أن نمس أطفالنا ، ولكن لم يتمكن إنسان من ابتكار طريقة لاتباعها فى هذا المجال مثال ذلك عدوى خوف البالغين ، فالأم التى تخاف من الكلاب أو الظلام لا يتمكن أطفالها من التغلب على العدوى منها ويحدث نفس الشىء حين يخاف الآباء من الدخول فى أعمال جديدة أو حتى التفكير فى مغامرات جديدة فالحقائق توضح لنا بأنه لا يوجد آباء مهما وصلوا إلى درجة كبيرة من الصلاحية لا يحملون بعض المخاوف غير المعتدلة ، مخاوف عميقة فى عقلهم غير الواعى مما يجعلهم غير مدركين بوجودها ، والأطفال مرتبطون بشعورهم بها

أنانية الأب ليس من الغلو أن يقال إن الوالد كثيراً ما يسىء إلى

ابنه ، وأن المصاعب التى يعانيها طالب الجامعة أو المدرسة الثانوية وتلميذ المدرسة الابتدائية قد يكون مرجعها كلها أو معظمها إلى تصرفات الأب الخاطئة فى اندفاعه بعامل الشفقة المجردة من التبصر والخالية من التفكير السوى . بل قد يكون الأب نفسه هو الذى يقلق على مستقبل ابنه دون أن يدرى . ولست بهذا أتهم الأب فى حسن نيته ، فكلنا نعلم أن نية الأب نحو ابنه لا يمكن أن تخرج عن السعى فى توفير الخير ، فى حاضره ومستقبله . وهو فى هذا السبيل يصرف الكثير والقليل ، مرهقاً نفسه وباذلاً أقصى ما يمكن من عناء وجهد حتى يطمئن آخر الأمر إلى أنه أدى واجبه نحو ابنه على الوجه الأكمل . ولكن النية وحدها لا تكفى هنا ، فإن هناك عاملاً آخر يلعب دوراً له خطورته . وهذا العامل الخطير هو «أنانية الوالد» . نعم أنانيته ، وهى أنانية مجسمة ومقنعة فى آن واحد . وكلما زاد جهل الوالد بالأصول الفكرية فى تربية ابنه عظم أثر هذا العامل وعم ضرره . وليست مكانة الأب العلمية ولا مركزه الاجتماعى العاصم له من الوقوع فى هذا الشر مادام يجهل أو يتجاهل المبادئ الأساسية فى التربية ، وما دام هذا الجهل يقف حائلاً بينه وبين ما يجب أن يضعه نصب عينيه قبل البدء فى تنفيذ أى خطة إزاء تنشئة ابنه التنشئة التى تكفل له الحصول على أكبر قدر من صحة الجسم والعقل والخلق .

أنانية الأم . أما أنانية الأم فلا حاجة إلى الإفاضة فى الحديث عنها لأن الأمثلة عليها متكررة كل يوم ، وهى أكثر من أن تحصى ، كما أن لها على حاضر أبنائها وعلى مستقبلهم أثراً ملموساً ، فكم من

فرصة للنفع والإفادة أضاعتها الأم على ابنها بسبب أنانيتها القصيرة النظر ، وكم من أم وقفت فى سبيل مستقبل ابنها لأنها لا تريده بعيداً عنها تريده دائماً إلى جانبها ، كأن فى البعد قضاء عليه وعليها إن الأم فى هذه الأنانية الغاشمة المستبدة لا تعرف أين يكون الخير لابنها ، إنها تريد له الخير بعاطفتها فقط ، واهمة أن العاطفة هى المربى ، تتمنى مثل هذه الأم أن يكون ابنها رجلاً كامل الرجولة ولكن جهودها فى هذا السبيل لا تتعدى الرغبة ، ومتى حققت الرغبة وحدها غاية ؟ ! والأم الحكيمة تستطيع أن تجعل من أبسط الأمور مجالاً للتطبيق فى تربية أبنائها ، فهى مثلاً تستطيع أن تبدأ بالسماح لهم بقضاء حاجتهم الخاصة مثل لبس الحذاء أو خلع الملابس ووضعها فى مكانها الخاص بدلاً من تركها للخدم أو لها هى وهكذا رويداً رويداً ، هذه الأعمال البسيطة فى مظهرها ، لها نفعها وأثرها فى نفس الطفل ، إذ عن طريق الممارسة تتكون شخصية الإنسان وتظهر كفايته ، والواقع أن ما نشكو منه الآن من رخاوة فى السلوك وعدم القدرة على الاعتماد على النفس إنما غرست بذورها الأولى فى البيت ، غرسها الآباء والأمهات بعاطفتهم الساذجة إزاء أبنائهم ورغبتهم فى توفير الراحة لهم كاملة والطريق السّوى هو أن يعلموهم مواجهة الحقائق كما هى ، وكل حقيقة يواجهها الطفل كما هى ، مهما تبدو بسيطة تافهة فى مظهرها إنما هى كسب له وتدعيم لشخصيته وسيرى الوالدان أن كل مشقة تحملها عواطفهما فى سبيل هذه الغاية لا تحسب إذا قيست بنتائجها ، وهى إعداد رجل سعيد لانسجامه مع نفسه أولاً ثم لقدرته على الانسجام مع بيئته ومجتمعه ثانياً ، متمسك

بمبائده لإيمانه بها   ولن يجدى فى تربية الشخصية أن يجد الطفل جميع رغباته تنفذ على الفور ، كما لن يشفع للوالدين حسن النية وصدق الرغبة فى إسعاد أطفالهما ولو أدركا القيمة التربوية لسنوات الطفولة ومدى أثرها فى تكوين شخصية الرجل الذى سوف يكون لعرفا أن العاطفة الساذجة وحدها لن تحقق رجلاً

عدم تقبل الآباء اختلاف أبنائهم عنهم   إن الآباء يتعثرون كذلك فى أن يتقبلوا معارضة أطفالهم الذين يختلفون عنهم اختلافاً بيناً   ويعتبرون ذلك الاختلاف أمر أداء ، فكثيراً ما يرددون « ما أجمل أن يكون أطفالنا صورة حية مثلنا » لأنهم يعتقدون فى علم النفس السلوكى الذى يؤمن بأن الأطفال صفحات بيضاء نسطر عليها ما نروم ونهوى بالطريقة التى تروق لنا   وفى الحقيقة أن هذا المفهوم ليس صحيحاً ، إذ أصبحنا الآن ندرك جيداً أن الطفل كثير الشبه بآلة موسيقية معدة للإيقاع   بالاشتراك بينه وبين والديه يمكن اللعب عليها حسب النغم المعد لها

وفى هذه الأيام يضع الأطباء النفسيون والإخصائيون اعتباراً كبيراً للوراثة إلى درجة تفوق الواقع ، إذ أنهم يقررون أن طبيعة الطفل تحدد إلى حد كبير من أول لحظة الإخصاب حين يتم اتحاد الخلايا الوراثية بعضها ببعض « الحنين » كما قال أحد الخبراء فى علم الوراثة استعداد الطفل الأصلى يأتى معه إلى العالم

وإذا تعمقنا فى هذه الناحية ، فإنه ينبغى أن يدرك الآباء والأمهات جيداً أن أطفالهم لا يختلفون عنهم فقط ، بل يختلفون بعضهم عن بعض منذ ساعة ولادتهم   وفى الحقيقة إذا ألقيت نظرة من نافذة إحدى دور

الحضانة فسوف تلاحظ أن الأطفال لا يتشابهون فهم يختلفون فى الحجم والوزن والطول وشكل الرأس ولون الشعر والجلد وحتى فى إستجاباتهم إلى العالم الذى يحيط بهم ، فالبعض يظهر نشاطاً والآخر يكون متكاسلاً ، والبعض يصرخ بقوة والآخر نادراً ما يصدر عنهم أى صوت فالأطفال بصفة عامة يختلفون فى سلوكهم ويختلفون فى مقدار معارضتهم ويختلفون فى اتجاه معتقداتهم ، ولا بد من هذا الاختلاف لأنه مقرر باختلاف الظروف التى تنشأ فيها والقدرات الموجودة لدى كل منهم . وإذا شاء الآباء لأبنائهم التميز فينبغى عليهم أن يتبينوا فى أى الاتجاهات تسير مواهب صغارهم وقدرتهم وأن يعملوا على توفير الفرص الملائمة لهم التى تتيح لهذه المواهب والقدرات أن تنمو وتزدهر بغض النظر عن رغباتهم هم فكثيراً ما نرى موهبة موسيقية أو فنية عند صبى قد ضمرت لأن الوالدين يريدان أن يكون طبيباً أو مهندساً ولأنهما يريان أن الفن كمهنة دون ما يرجوان لابنهما فالوالدان حين يرغبان « التميز » لابنهما ، فإنهما كثيراً ما يقصدان هذا التميز ولا يستطيعان إخراج نفسيهما من الصورة كلية

صعوبة رؤية الأشياء من وجهة نظر الطفل على الرغم من أنه ينبغى على الآباء تقبل الاختلاف الواضح فى هذا العالم الذى لا يشبه عالمهم الذى نشأوا هم فيه ، ومع ذلك فهم لا يستطيعون تقبل ذلك كاملاً ففى أحسن الأوقات التى يكون فيها الهدوء سائداً يعانى الآباء من صعوبة رؤية الأمور من وجهة نظر الطفل ويرجع ذلك إلى الحقيقة التى توضح أن السنوات قد أخفت الأخطاء والآلام التى كانوا

يعانون منها فى طفولتهم ، وأظهرت فقط الذكريات السعيدة فمعظم الآباء لا يستطيعون تذكر كيف كان حالهم حين كانوا أطفالاً ، يتذكرون فقط الأشياء الجميلة وتتلاشى المشاكل من ذاكرتهم فيرددون « لم نتجاوب بهذه الطريقة فى طفولتنا ، ولا يمكن أن نكون قد فعلنا ذلك وقد طمره النسيان » ؟

وقد أثبتت الدراسات أن الآباء لا يستطيعون فى معظم الأحيان فهم أسباب المخاوف والاضطرابات التى تصيب أبناءهم ، ولذلك لا يستطيعون السيطرة عليها وقد قال أحد الخبراء « لا شك أن المشاكل الخارجية لها تأثير على الأطفال أيضاً كما تفعل مع الكبار ، فالمرض والوفاة فى محيط الأسرة أو الأزمات الاقتصادية ، أو الانتقال إلى مكان آخر ، وبلد آخر تعرض الطفل لمثل هذه التوترات فتؤثر على صحته النفسية فالأطفال يمكن أن يعانوا من صدمة ربما لا يكون لها تأثير على آبائهم ولكن يمكن أن تؤدى إلى صراعات داخلية أو إضطرابات نفسيه لديهم فإنى أعرف طفلاً كان يعانى من كابوس ليلى استمر لشهور متعددة من رؤيته حادث عربة فى الطريق حيث قتل فيه طفل فى مثل سنه »

وأحياناً أيضاً يكون الطفل عليلاً أو ضعيف البنية مما يؤثر على تحصيله الدراسى كما ذكرنا ، إذ تكون الضغوط التى يعانيها مع أقرانه فى المدرسة أكثر من قوة احتماله ، أو قدوم طفل جديد فى وقت محنة معينة تعانى فيها الأسرة مما يصرف انتباههم عن مساعدة الطفل أو الطفلة الكبرى إنى أعرف طفلة فى الخامسة كان على الأسرة أن تتحمل قدوم طفل جديد مع ضغط ذهابها لأول مرة إلى المدرسة مضافاً إلى ذلك ما كانت

تعانيه من ضرورة ارتداء طوق نحاسى فى إحدى ساقيها بعد إصابتها بشلل الأطفال

ماذا ينبغى أن نفعله لأطفالنا حين يتعرضون لمثل هذه الأحداث ؟ وهل يستطيع الآباء تبسيط الأمور لأنفسهم ولأطفالهم ؟ وهل هناك الطرق التى تخفف التوتر بينهم وبين أطفالهم ؟

التخفف نعم ولكن المانع لا ، فلا توجد قاعدة لتغيير الطبيعة البشرية وجنوحها نحو الاستقلال ، ومع ذلك لا يوجد آباء مهما بلغوا من الحكمة يستطيعون تجنب المتاعب التى يقابلونها مع هذه المخلوقات الصغيرة غير المتوقعة والتى أعطيت لهم لحصانتها بواسطة حادث الولادة .

ومع ذلك فهناك بعض الطرق التى تخفف من شدة التوتر بين الآباء وأبنائهم فيمكن تجنب هذه التوترات إذا حاول الآباء قبول الحقيقة التى تقول الطفل هو الطفل مخلوق بشرى يبدأ حياته ، ثم ينمو ويتعلم الكثير وأمامه طريق طويل لتحقيق النضج الكامل من الناحية الجسمية والنفسية والعقلية ، فلا يمكن للعقاب أو الثواب أن يفعلا شيئاً للطفل إذا كان استعداده الداخلى لا يسمح بذلك ولا يستطيع الآباء أن يرغموا الطفل على استكمال شىء ما لم يصل إلى درجة النمو فعلاً

خلاصة القول طفل الخامسة لا يستطيع عمل ما يفعله طفل التاسعة مهما كانت المحاولات فى سبيل ذلك ، وخير ما يقال فى هذا المجال

« إنه ينبغى أن يقول الطفل الصدق دائماً وأن يتكلم حين يطلب منه ذلك ، ويتبع آداب المائدة حين يكون قادراً على ذلك » وكذلك ينبغى

كما أشرنا سابقاً على الآباء والأمهات أن يتقبلوا بدون تحفظ الحقيقة ، لأن أطفالهم ليسوا صوراً طبق الأصل لأنفسهم ، وأن يدركوا بأن ليس فى استطاعة أى والدين فى هذا العالم إن يشكلا الأطفال بصورتهما فالأطفال كائنات حية على صواب منذ البداية يشبهون أنفسهم ولا يشبهوننا وما ينبغى أن نفعله نحو أطفالنا هو أن نمهد لهم الطريق الذى يشعرون فيه بكيانهم ، ونشعر نحن أيضاً بذلك وأن ندرك أن التهذيب شيء أعمق بكثير من العقاب والجزاء ، فى الحقيقة أنه يعنى وضع أطفالنا تحت سيطرة أنفسهم فيستطيعون استخـــدام أحسن صفاتهم ويعنى أيضاً إتاحة الفرصة لهم لاتخاذ القرارات وقبول نتائج اختبارهم

فالتهذيب يعطى أفضل نتيجة حين يصدر عن آباء مدركين لمواقع ضعفهم أنفسهم وعلى استعداد لإصلاحها والنجاح فى التغلب عليها ولذلك فمن الحكمة حين يتدرب القلب يصاحب ذلك تدريب العقل والعاطفة والتفكير إذ أن كثيراً من الآباء يفرضون على أطفالهم اتجاهات واسعة من المسئولية لأنهم يتوقعون بصورة مبالغة فيها قدرة أطفالهم على استيعاب هذا الاتجاه ولكن إذا كان فى قدرة الكلمات فقط أن تصلح من شأننا أو إذا كان فى إمكاننا تنفيذ الشيء بمجرد أنه قيل لنا ، فإننا جميعاً سوف نكون دائماً على صواب فى تصرفاتنا ، وهذا بعيد عن الواقع

فدوافع السلوك عند الطفل تشبه دوافع السلوك لدينا تماماً تنفذ أحياناً إلى القلب ولكن لا تصل إلى العقل

والخلاصة لا يمكن إنكار أن الكارثة يمكن أن تصيب أطفالنا بالداخل وبالخارج ولا ستطيع الآباء لأى كمية من المعلومات أو

الحكمة أن يطمئنوا بأن أبناءهم سوف يشبون باعتدال ، وتنشئة الأطفال ليست فناً فى حدود معينة ولا يستطيع أى شخص أن يدرك بدقة سبب سير الأمور بصورة مختلفة

ولكن كل ما ينبغى أن يفعله الآباء هو اتباع أفضل ما لديهم من المعاملة وأنه أقرب من الحقيقة القول إن الطفل سوف يكون بعيداً عن المتاعب إذا أغدق والداه عليه الحب والحنان وأبعداه عن التوتر النفسى ، وإذا أشعراه بالسعادة فى الحياة اليومية معه ، وكانا يملكان المهارة الكافية التى تساعدهما على تحقيق المقاييس التى تصل إلى درجة التهذيب ، وإذا حاولا معاملته كشخصهما فى إحتمال التعرض للضعف والخطأ ، ولكن تحركهما بأحلام واسعة وتوقعهما الكثير من الطفل لن يصل إلا إلى الكارثة

فى الوقت الحالى يسعدنا أن الأطفال يبذلون ما فى وسعهم فى محاولة تتبع المثل العليا التى يتحلى بها آباؤهم فإذا لم يتمكنوا من السير بدقة على الطريق المرسوم لهم فهم ليسوا بعيدين عنه والممر الذى يفصل بين طريق الوالدين وبين الطفل غالباً ما يكون يانعاً مزدهراً لكلا الطرفين

دور الأب فى التنشئة النفسية للأبناء

جرى العرف على أن تنشئة الطفل ، وخاصة فى الفترة المبكرة من حياته ، هى مهمة الأم وحدها ، ولقد كثر الحديث وتنوع عن الدور الذى ينبغى أن تقوم به الأم فى تنشئة أطفالها ، وأصبح من الحقائق المقررة أن علاقة الطفل بأمه فى السنوات الأولى إذا توقفت واستقرت

على أسس وطيدة من الحنان والرعاية والإدراك لحاجاته وحسن التناول لهذه الحاجات ، مهدت له السبيل إلى الثقة بنفسه والتعرف إلى ذاتيته وتحقيق الشعور بالانتماء والطمأنينة ، وهى الأسس التى يرى الطب النفسى ضرورة توافرها لكى ينعم المرء بصحة نفسية تهيئ له فيما بعد سبيل التنمية لما لديه من قدرات ، والتوفيق فيما سيضطلع به من مهام ، وحسن التكيف فيما سيقيم من علاقات ، والتعرف إلى السعادة وممارستها كخبرة حية تشيع فى حياته الهدوء وتعينه على الاستمتاع إذا لقى النجاح ، وتعصمه من الانهيار إذا صادفه الفشل

وقد يكون صحيحاً أن القدر الأكبر من مهمة التنشئة النفسية للطفل فى الفترة المبكرة يقع على عاتق الأم ، ولكن أصول التنشئة السليمة تقضى بأن يكون للأب دوره أيضاً ، وبعبارة أخرى يمكن القول إن تنشئة الطفل مهمة ومسئولية مزدوجة ، لكلٍ من الأم والأب دور فيها ومن البديهى أن يختلف دور كل منهما كماً وكيفاً وفقاً لمرحلة النمو التى يمر بها الطفل ولظروف الحياة لكل منها ، وخاصة بعد أن تفتحت فرص العمل أمام المرأة وأصبحت المرأة العاملة ظاهرة تتجه إلى الثبات والاستقرار فى مجتمعنا

المؤثرات البيئية

ولما كانت المؤثرات البيئية أثناء الطفولة المبكرة تكاد تنحصر فى الوالدين ، ولما كان الحب والقبول لازمين لتحقيق الطمأنينة للصغير ، فإن التنشئة فى آفاقها الرحبة ترمى فى المقام الأول إلى مساعدة الطفل على

تنمية كل الصفات الإيجابية فى شخصيته ، مثل الشجاعة والإيثار والتضحية والصدق والولاء والتعاون والمروءة والأمانة وتحمل المسئولية ، والنهوض بالواجب ، هى جميعها صفات خلقية إيجابية فى جوهرها ، هى استجابة الصغير لتأثير الوالدين عليه ، دون أن يكون معنى هذا بطبيعة الحال أن اتجاهات الوالدين تتأثر بدورها بالقيم الاجتماعية السائدة ولكن التركيز على الأم وما ينبغى أن تحيط بالطفل من حب وقبول يكاد يخفى عنا أن فى حياة الصغير قوة مؤثرة وفعالة أخرى هى شخصية الأب ، وأنه إلى جانب ما يلقى من حب وقبول بحاجة أيضاً إلى التزود لحياته بصفات أخرى لا سبيل إلى تنميتها فى نفسه ، إلا أن يقوم الأب بدوره سليماً وكاملاً

أثر مشاركة الأب لزوجته فى تنشئة الأبناء

إن مشاركة الرجل زوجته ، سواء كانت تعمل فى الخارج أو لا تعمل ، فى أعباء المنزل ورعاية الأبناء مصلحة صحية له ولهم جميعاً ، ذلك أن قيام الرجل بجانب من أعباء المنزل فيه توجيه له إلى لون من النشاط يختلف تماماً عن النمطية المملة أو المرضية التى يسير عليها عمله اليومى ، وهذا الاختلاف فى حد ذاته راحة ذهنية ووجدانية هو فى أمس الحاجة إليها لكى يحتفظ بصحته سليمة من احتمالات العطف أطول وقت مستطاع ، هذا فضلاً عن أن رعاية الأبناء وحدهم ، إنما هى تضيف إلى حياة الكبار إشراقاً لا سبيل لهم إلى اختياره عن غير هذا الطريق ، فنرى وجودهم لا بالمعرفة فحسب ولكن بدفء العلاقة الوجدانية التى تميز جو الحياة فى الأسرة السعيدة ، ثم بالإضافة إلى هذا كله فإن إقبال

الرجل على المشاركة فى أعباء المنزل ورعاية الأبناء هو التجسيد العملى للإيمان بمفهوم المساواة والمشاركة والتعاون فى العلاقة بينه وبين زوجته ، وهو أيضاً الوسيلة الوحيدة لخلق المناخ الصحى والسليم فى العلاقة بين أفراد الأسرة جميعاً وفى مثل هذا المناخ سوف يكون للأب دوره المؤثر والفعال فى مساعدة أبنائه على تحقيق أهداف التنشئة السليمة وهى تنمية ما لديهم من إمكانيات ذهنية ووجدانية إلى أقصى غاياتها ، وتهيئة الفرص الملائمة لاختيار الرضا عن وجودهم كعامل محفز لهم للسير فى طريق التقدم والارتقاء دون محاولة صب شخصياتهم فى القوالب التى يريدها الكبار لهم وفى سبيل تحقيق هذه الغاية يستطيع الأب أن يساهم بالكثير

دور الأب فى تنشئة الأبناء

الأب وتوفير السعادة لزوجته

ينبغى على الأب أن يتيح لزوجته فرصة تحقيق الصحة والسعادة وراحة البال ، لاوفاء بحقها عليه فحسب ، ولكن تلبية لالتزامه الأول إزاء أبنائه أيضاً ، ذلك أن الطفل مخلوق شديد الحساسية لكل ما يجرى حوله بوجه عام وللعلاقة بين والديه على وجه الخصوص فإذا لمس من هذه العلاقة الحب والتعاون غمره الشعور بالرضا عن الحياة والاطمئنان إليها والإقبال عليها ، وكان هذا الشعور تمهيداً ساندأ ومعيناً له حين يكون عليه أن يمارس الحياة فيما بعد .

كما أنه يجب أن يقوم بدور السند المعنوى لزوجته ، لا لأن ذلك يبعث فيها الإشراق ويدفعها إلى الإقبال ، ويطلق طاقاتها إلى جهد مؤثر وبناء فحسب ، لكن أيضاً لأن عملية التنشئة مهما يكن مقدار الحرية التى تتاح فيها للصغير ، لا بد أن تنطوى على بعض القيود بالنسبة لرغباته ومن أهم أصول التنشئة أن يشعر الصغار بأن الأب والأم لهما رأى واحد فى هذا الاتجاه ، إذ أن إدراكهم الاختلاف بينهما خليق بأن يصيبهم بالحيرة والقلق والانزعاج ، ثم ببلبلة شديدة تجعل من العسير عليهم أن يكونوا لأنفسهم معايير واضحة للصواب والخطأ ، وهى آخر الأمر من المعالم الرئيسية على طريق النضج . هذا إلى أن إدراكهم وجود اختلاف بين والديهم قد يحفزهم على محاولة الانحياز لأحدهما دون الآخر ، واللعب على اختلافهما لتحقيق رغباتهم وبراعة الأطفال فى هذا المجال تفوق أى تصور أو توقع الكبار

الأب وخلق المناخ الصحى الملائم بالأسرة

وينبغى على الأب أن يجعل من وجوده فى حياة الأسرة سبيلاً لكى يتعرف الصغار على ما له من صفات إيجابية يعنيهم التعرف عليها والتوحد معها على تكوين شخصياتهم ونضجها وليس معنى هذا أن يحاول الأب فرض صفاته وشخصيته على الصغار بأى حال فإن هذا مجاف تماماً لأهداف التنشئة السليمة ولكن معناه أن يعمل الأب على خلق المناخ الصحى الملائم فى أسرته لأن لهذا المناخ خلفية لابد منها ليكون وجوده فى الأسرة عامل إثراء لشخصية الصغار وفى هذا المجال فإن الأبناء

يكونون مثلهم العليا ، ولو بصورة جزئية على الأقل ، مما يرونه أو يظنون أنهم يرونه فى الأب وحتى مجرد أن يعرفوا شيئاً عن طبيعة العمل الذى يتوجه إليه كل صباح ويعود منه ظهراً أو فى المساء ، لكى نفتح أمامهم آفاقاً واسعة من الخيال الذى يدعم شعورهم بالطمأنينة والثقة بالنفس فإذا أضيف إلى ذلك إلحاقهم بشىء عن طبيعة عمل الأم تهيأت أمامهم الفرص لاستقرار هذا الشعور وهم لا يزالون بعد فى أولى خطوهم على طريق الحياة ، فالأب الذى له وجود واضح وسليم فى حياة أسرته يمكنه أن يمنع عن أبنائه الكثير من معوقات النمو وانحرافاته ، ذلك أن عدم وجوده معنوياً أو مادياً ، قد يدفع الأبناء إلى أن يكونوا عنه صورة خيالية متألية لاتصح من تطرفها خبرات الواقع الفعلى معه فإذا كبروا وكان عليهم أن يواجهوا الواقع على حقيقته اصطدم ما يواجهونه فعلاً بنقائصه وعيوبه مع ما تمثلوه فى خيالهم بكماله وخلوه من الهنات ، فيؤدى هذا الاصطدام بين الخيال والواقع ربما ، إلى حالات من اليأس تصيب الأبناء بعد أن يكبروا مصحوبة إما بالاستسلام أو التمرد ونحن كثيراً ما نلتقى فى عملنا أمثال هؤلاء الناس الذين لا يستطيعون قبول الغير كما هم ، ويرون الخطأ الصغير فيهم ، وكأنه الخطيئة الكبيرة ، عاجزين عن أن يروضوا أنفسهم على قبول ما هو دون الكمال

الأب يمثل السلطة

أن يقف الوالد من الطفل موقفاً فيه الحزم أحياناً ، وفيه قدر من الحد من نشاطه ومن الإجابة لرغباته لأن الأب مهما يكن فى رقته وهدوئه ، يمثل

بالنسبة للصغير « السلطة » ، والصغير يحتاج نفسياً إلى وجود السلطة فى حياته ، لأنها هى التى تساعده على تمثل القيم والمفاهيم السائدة فى المجتمع الذى يعيش فيه وهى التى تكفه عن الانطلاق وراء نزواته الطفولية وأهوائها ، أى أن هذه السلطة تساعده على اكتساب التنظيم الداخلى اللازم لعمليات التكيف الاجتماعى من ناحية ولتكوّن الاستقرار النفسى من ناحية أخرى ، وعدم وجود هذه السلطة ، أوممارستها ، زيادة أونقصاً ، بطريقة خاطئة من أهم العوامل التى تبعد عن الطفل الطمأنينة وتبذرفى نفسه الفزع

الأب وسلوك الطفل

إذا كانت التنشئة النفسية السليمة تقضى بأن ينمو الطفل فى جو مشجع بالحرية خال من القيود بقدر الإمكان فإنها فى الوقت نفسه تقتضى أيضاً بأن يمارس قدراً من النظام ، والنظام هنا لا يعنى المقيد ولكنه يعنى الضبط ، فإذا ألحت على الطفل بعض رغباته ، وهى لابد أن تلح عليه أحياناً ، فدفعت به إلى محاولة الانطلاق خارج الحدود التى تقتضيها مصلحته ، فنى وسع الأب ، ومن واجبه ، أن يعطيه فى حديث قصير إيضاحاً لمدلول السلوك الذى يراد له قدر من الضبط والطفل كائن منطقى معتدل يستجيب إذا لقى الاحترام وعومل على مستوى إنسانيته . أما معاملته على أساس الأمر والنهى والعقاب فإنها تثير فى نفسه الكثير من أسباب الهم والقلق والخطيئة والعدوان ، فوق أنها توفق إلى أن يرى أباه فى صورة المتسلط الباطش الغاشم لا الموجه الصديق الهادئ ، وشتان بين الصورتين تأثيراً فى نفس الطفل

الأب والحنان

إن مهمة الأب كرمز للسلطة لا تتنافى مع مهمته كمصدر للحنان ولقد درجنا على أن نسمع أن الأم هى مصدر الحنان للطفل ، وقرأنا وسمعنا الكثير عن آثار الحرمان من حنان الأم وقد يكون من شأن ذلك أن استقر فى أذهاننا أنه لا شأن للأب بالحنان ، ولكن هذا غير صحيح فقد أصبحنا نعرف الآن أن حنان الأب لازم لصحة الطفل لزوم حنان الأم تماماً

وفى بعض القطاعات المتمسكة بالمفاهيم القديمة فى مجتمعنا قد يتنافى الحنان – الذى يصدر عن الأب – مع السمات التى كانت تلازمه لمفهوم الرجولة وهى سمات الشدة والخشونة والهيبة وما إلى ذلك كله مما يتعارض فى تفكير أصحاب هذه المفاهيم القديمة من الحنان وما يرتبط به من خور وضعف

والذى أود أن أقرره هنا مؤكدة هو أنه ليس هناك ما هو أبعد من مثل هذا التفكير عن الصواب إن إظهار الحنان للصغار وبخاصة للصبيان منهم لا يتعارض مع رجولة الكبار ولا يتعارض مع النمو ، بل على العكس هو الصحيح إن الصبى الذى يلقى الحنان صغيراً يلقى مع الحنان الإشباع لحاجة نفسية ملحة ، هى حاجته إلى أن يشعر بأنه مقبول ومحبوب ومتى لقيت هذه الحاجة الإشباع فإن الطفل سيشب وهو لا يطيق أن يرى الحرمان يعانى منه الغير ، وسيعمل جاهداً على مكافحة هذا الحرمان ، سيشب على وجدان اجتماعى يتلخص فى صفة الشهامة ،

والشهامة من أهم صفات الرجولة

إن الخشونة فى معاملة الصغار لا تفيدهم فى شىء ولا تجعلهم ، كما يظن بعض الآباء أكثر كفاية لمقابلة أعباء الحياة ومتاعبها ، كما أنها لست كما أكدت ، علامة ضعف من الآباء ونفى سمات الرجولة لديهم وحتى لو كانت هذه الخشونة محاولة من الآباء لإخفاء حبهم لأبنائهم فإن ذلك لا يبررها

وليس معنى هذا ألا يعامل الطفل الصغير بأى قدر من الخشونة إطلاقاً لأن الأطفال الصغار يحبون بعض الخشونة أحياناً ، ولكن ينبغى فى هذا المقام أن نتوخى غاية الحكمة وأن نرقب ما يحبه الصغير عن طريق مشاهدة سلوكه

ولو صبر كل أب على صغيره قليلا وأعطاه من وقته وكده بعض ما يستحق ، فتحاشى كثيراً من عوامل القلق والهم والخطيئة والعدوان التى كثيراً ما تفتك بالنفوس الصغيرة فإن الطفل يحتاج لهذه اللفتات من أبيه ، يستجيب لها . وليس أفعل فى إدخال الطمأنينة على نفس الطفل وفى تقويم سلوكه من أن يشعر أن أباه يقوم بدوره كأب يرعى مصلحته ويرقب أخطاءه ويرده عنها فى أسلوب هو الحزم والعطف معاً ، ولا يضن عليه بالثناء إذا أصاب ، ويعامله بنزاهة انفعالية تجعله دائماً وفى جميع الأحيان جديراً بالثقة وأهلا للاعتماد

الأب وتحويل أنانية الطفل إلى حب الغير

الطفل فى البواكير الأولى من حياته كائن أنانى لا يعرف إلا نفسه

ولا يحيا إلا لها . والأبوة الرشيدة الناجحة هى التى تعمل فى دأب ومثابرة وبصيرة على تحويل قدر من الأنانية إلى حب الغير ، حتى إذا أدرك الطفل المراهقة كان مستطيعاً ، عن طريق ما أتيح له من فرص الإعطاء والمشاركة والاضطلاع بالتبعات المناسبة لسنه ، وعن طريق المناقشات الودية فى بعض الأحيان ، ثم عن طريق المثال الذى يراه من والديه ، فليس فى الواقع أفعل من هذا المثال فى نفوس الصغار ، كان مستطيعًا أن يكون لنفسه معياراً للقيم الخلقية فيكون حب الغير ورعاية حقوقهم من مقوماته الأساسية .

والحب عمله ذات وجهين ، أحد وجهيها الأخذ ووجهها الآخر العطاء . والطفل الذى لم يعط نصيبه من الحب سخياً كاملا ينشأ متركزاً حول نفسه لا يفكر إلا فيما يستطيع أن يأخذ من أى موقف يوجد فيه ، فيظل اتجاهه من الحياة أبداً هو اتجاه الخطف الجشع فإن الذى لم يحصل إلا على القليل من الحب فى سنيه الأولى سيظل جائعاً إلى المزيد من هذا الغذاء الوجدانى . والإنسان الجائع المحروم يتعذر عليه أن يشاطره غير كسرة الخبز التى لديه ، بعكس الإنسان الذى اعتاد الشبع . والحرمان يولد الأنانية ، يولد الرغبة النهمة فى الأخذ والعجز عن الإعطاء

إن الأب يستطيع أن يزرع الحب فى حياة ابنه منذ ولادته . . ويستطيع بل هو مسئول عن أن يغذيه بعد ذلك عن طريق الاهتمام المتصل والرعاية الواعية لحاجاته وحقوقه فعلى كل أب أن يعطى طفله الحب أولا ويعطيه الحب ثانياً ، ثم يعطيه الحب أخيراً يعطيه الحب لأنه زاده حين ينتظر منه بدوره أن يعطيه ، فليعطه الحب ، فإن فاقد الشىء لا يعطيه

الأب وحديثه مع أبنائه

يستطيع الأب أن يزرع فى ابنه القدرة على المشاركة وأن يبدأ فى ذلك مبكراً ما أمكن التبكير ، والمشاركة علاقة فيها الأخذ والعطاء ، فيلكن مران الطفل على المشاركة هو فى الوقت نفسه مراناً له على أن يعطى فى مقابل ما يأخذ ، وبذلك يمهد له السبيل إلى اختيار السعادة عن طريق التعاون ، فإن الإنسان الأنانى إنسان شقى

وعلى الأب أن يعطى المثال فى نفسه ، فإنه بأيسر الجهد يستطيع أن يحقق أكبر النتائج فليدع أبناءه يشاركونه حياته ، فلا يجعل من حياته سراً ولغزاً مغلقاً على أبنائه بل يحدثهم عن نفسه ويقص عليهم بعض خبراته ويستعيد معهم شيئاً مما كان يشعر به فى بعض ما فات من مواقف . فى حديث صريح واضح أمين لا تكلف فيه ولا التواء ولا خفاء . فإن ذلك على بساطته تدريب لهم على معنى المشاركة وعون لهم على أن يعرفوا حقيقة مشاعرهم ولو التزم الأب فى مثل هذه الأحاديث الأمانة كما ينبغى ، لما أخفى عن أبنائه ما يجيش بنفسه من الدوافع الأقل نبلا أو ما لديه من وجوه القصور والضعف تحت وهم الاعتقاد بأن ذلك مثال من مكانة يود أن تظل عالية مصونة دائماً وسيحمد الأبناء للأب مثل هذه الصراحة ويستفيدون منها ، لا من حيث إنها تساعدهم على مواجهة مثل هذه الدوافع فى نفوسهم دون خطيئة أو ذنب فحسب ، ولكن أيضاً من حيث إنها درس عملى فى تجنب النفاق ومواجهة النفس بالحقيقة ، وإن انطوت على الخطأ والضعف فى أمانة وشجاعة فإنه مما يوثق العلاقة بين الآباء والأبناء أن يشعر الصغار

أن كبارهم مثلهم ، ليسوا من طينة أخرى ولا من صنع آخر ، لهم ضعفهم ولهم أخطاؤهم هم أيضاً

الأب وحاجة أبنائه إلى تشجيعه وتقديره ،
وتجنب النقد اللاذع والتفرقة بينهم !

إن الأبناء بحاجة إلى أن يلقوا التشجيع ويطمئنوا إلى الموافقة والقبول من أبيهم ، كى ينعموا بحياة فيها الشجاعة والتعاون إن شعور الطفل بتقدير أبيه لما فعل خليق بأن ينبه فيه خير ما عنده وأن يبعث لديه الحماس للقيام بخير ما يستطيع فكلمة التشجيع التى يحظى بها من أبيه متى أعطيت فى حينها هى حجر الأساس فى تكوين الثقة بالنفس وهى صفة لابد منها لإمكان التقدم فيما بعد . إن قدرات الطفل تنمو على التشجيع وتضمر باللوم والتثبيط ، وشعوره بأنه يلقى الثقة والتقدير والاحترام من أبيه خليق بأن ينمى فى نفسه صفات الشجاعة والعزم والاتزان ، وهى دائماً من مقومات الشخصية الخلاقة

والأب مسئول عن أن يسود حياة الأسرة جو المودة والحب والاحترام ، وأن ينتفى منها النقد اللاذع وخاصة إذا كان مركزاً دائماً على فرد بعينه لأى سبب من الأسباب – فإن هذا الجو المشبع بالاحترام ينتقل إلى الأطفال ويعلمهم كيف يحترم بعضهم بعضاً

وكذلك على الأب أن يتجنب ، ثم يتصدى ، لأى بادرة تفرقة فى المعاملة بين الولد والبنت ، فإن هذا التمييز للولد هو البذرة الأولى التى تنبت منها وتتفرع عنها كل انحرافات العلاقة بين الجنسين فيما بعد

ولكن مهما يكن فى شأن جو الاحترام فى الأسرة قد لا يمنع ما يثور بين الأطفال فى الأسرة الواحدة من خلاف ، ولكنه يساعد على حصر هذا الخلاف فى أضيق نطاق مستطاع ، كما أنه يعلم الصغار كيف يمكن أن يختلف الإنسان مع غيره فى الرأى ثم يبقى على احترامه إياه ، وما أشد حاجتهم إلى مثل هذا الدرس

ما أشد حاجتنا إلى التحرر من التحيز والترمت وإلى التحلى بالتسامح والمرونة وسعة الأفق ، وهذه كلها سمات يكتسبها المرء فى البيت من الأب

فالأب الذى يضع نصب عينيه أن ينشىء ابنه على احترام الغير وحقوقهم ومعتقداتهم ومساهمتهم إنما يساعده على أن يطل على الحياة من أفق واسع وعلى أن ينظر إلى مسائلها ومشاكلها بعين موضوعية متحررة من آثار التحيز والهوى

الأب وضرورة عدم نقل هموم العمل إلى المنزل

من الخير أن يذكر الأب دائماً أنه لا بد من الفصل بين العمل والمنزل فصلاً تاماً بقدر الإمكان ، ومعنى هذا الفصل هنا ألا ينقل الأب هموم العمل ومتاعبه معه إلى البيت إن البيت مكان يختلف كل الاختلاف عن العمل ، وجو البيت من أجل ذلك ينبغى أن يختلف كل الاختلاف أيضاً عن جو العمل هذا ، إلى أن الصغار لا يستطيعون فهم هموم العمل ومتاعبه ، وبالتالى لا يستطيعون المساعدة فيها ومن ثم فإن ترك هموم العمل حيث هى أمر حتمى إذا شاء الأب أن ينهض بالتزاماته فى تنشئة الصغار على خير وجه لأنه إذا لم يفعل فسيعجز عن أن يتفرغ لأبنائه كما يجب ،

والصغار شديدو الحساسية فى هذا الأمر ، إنهم يستطيعون أن يكتشفوا بإحساساتهم من الذى يرعاهم بكل انتباهه ومن الذى يرعاهم شكلا ولكنه منصرف عنهم بفكره ثم بالإضافة إلى ذلك فإن نقل هموم العمل إلى المنزل خليق بأن يجعل الأب ضيق الخلق سهل الاستثارة ، وهذا أمر قد يفسر بواسطة الصغار على أنه صد لهم واعتداء عليهم لأنه ليس فى وسعهم أن يفهموا باعثه الحقيق ولا أن يروا له أى سبب آخر

ولا بأس فى هذا المقام من أن يتحدث الأب مع زوجته عن هموم العمل ومتاعبه ، وخاصة إذا كانت قادرة على التفهم وذات حكمة لأن ذلك يريحه من ناحية وقد يزوده برأى فيه المصلحة له من ناحية أخرى وللمرأة الحكيمة فى هذه المناسبات حدث كثيراً ما بوجهها فى مثل هذه الأحاديث والمشاورات بعيداً عن سمع الصغار ، وإلا انتقل إليهم ما قد تحتويه من هَمٍّ دون أن يهدئ من روعهم ما قد يقدم لها من حل

مما سبق نرى أن الدور الذى يستطيع الأب القيام به فى تنشئة أبنائه دور عظيم القدر والخطر ولو قام كل أب بواجبه فى هذا الصدد على النحو الذى ينبغى لكان لنا أن نرجو أن يجىء عالم الغد خيراً من عالم اليوم ، وأن يتحرر أبناء الغد من كثير مما يشقى به أبناء اليوم الأنانية والغيرة والشعور بالنقص والريبة وعدم الاكتراث وقلة المبالاة للغير والقسوة ومشاعر الخطيئة والإثم والخجل والقلق والخوف وغيرها من النزعات القبيحة التى تغزو النفس مع ما يلقى الطفل من أحداث كل يوم ، والتى تمهد لهزيمة صاحبها فى الحياة وتؤدى إلى تقويض شعوره بالسعادة والأمن

إن بيد الأب إن أحسن القيام بدوره أن ينشئ ابنه على الولاء والإيمان

والشجاعة وضبط النفس والثقة بها ، بيده أن يفجر ما فى نفس الصغير من ينابيع الخير والسخاء والحماس للحياة وعلى الأب أن يذكر دائماً أن دوره فى تنشئة الطفل لا يقل أهمية عن دور الأم ، وإن كان يقتضيه من الطاقة والجهد قدر ما يقتضيها ، كما أن عليه أن يذكر أن الأبوة ليست مقصورة على الانفاق وتلبية المطالب والحاجات المادية كما يعتقد بعض الآباء.

ومن ثم فإنه لن يكون الأب جديراً بشرف الأبوة إلا بقدر ما ينهض بتبعاتها على نحو سليم

الخوف وتأثيره على الصحة النفسية للطفل

الخوف الطبيعى والمرض الخوف حالة انفعالية داخلية طبيعية يشعر بها الإنسان فى بعض المواقف ويسلك فيها سلوكاً يبعده عادة عن مصادر الضرر ، وهذا كله ينشأ عن استعداد فطرى أوجده الخالق فى الإنسان والحيوان فالخوف هو الذى يدفعنا لحماية أنفسنا والمحافظة عليها فإذا كنا لا نخاف النار مثلا فقد تحرقنا ، وإذا كنا لا نخاف الحشرات والحيوانات الضارية فقد تقتلنا ، وإذا كنا لا نخاف الجراثيم فقد تفتك بنا ، وهناك كذلك الخوف من الزلل ، وخوف الإنسان على سمعته . وما إلى ذلك

فالخوف أمر طبيعى معتدل ضرورى يؤدى إلى حماية الفرد مما يجوز أن يسبب له ضرراً ، وجميع الطرق الوقائية التى نتخذها لحماية أنفسنا من عوادى الطبيعة أو المرض أو سخط المجتمع أو غير ذلك تدل على نوع

من الخوف نسميه الحذر أو الحيطة ، ويصح أن نسمية الخوف الواقى ، ومما لا شك فيه أنه فى درجاته المعتدلة صفة طيبة يجب الاتصاف بها

أما الخوف الكثير المتكرر الوقوع لأى سبب فيكون خوفاً مرضياً ، ولذلك فإن تضخم الخوف فى موقف ما خارجاً عن النسبة المعتدلة التى يتطلبها هذا الموقف عادة يعد أمراً غير طبيعى فإذا وجدنا طفلا فى السابعة يخاف الصراصير أو القطط أو يخاف الظلام فإننا نعد هذا أمراً غير عادى ، وإذا وجدنا طفلا فى الثالثة يخاف الظلام قليلا فإننا نعد هذا أمراً عادياً ولكنه إذا خاف لدرجة الفزع والجزع ، ووصل فى انفعاله لدرجة ينقلب فيها اتزانه ، بلا شك فإننا نعد هذا أمراً غير عادى فكان تضخم الخوف فى موقف ما تضخماً خارجاً عن الحد المعقول ، وكذلك تكرر الخوف تكراراً خارجاً عما هو مألوف يعد أمراً مرضياً يحتاج إلى تأمل وفحص وعلاج .

نرى مما تقدم أن لدينا خوفاً معتدلا من حيث درجته ومبلغ تكرره ، واكتمال حلقاته من انفعال وسلوك ولدينا خوف مرضى ، وهو ما يسفر عن هذه النواحى الثلاث والخوف الطبيعى المعتدل مفيد لسلامة الفرد وأما ما عدا ذلك فهو ضار لشخصية الفرد وسلوكه ويكون من مظاهره الانطواء وعدم الجرأة ، والتهتهة وغير ذلك من الخصال المعطلة للنمو

مخاوف الأطفال ومصادر تكوينها

تقسم مخاوف الأطفال بحسب موضوعاتها إلى حسية وغير حسية فموضوعاتها الأولى يمكن إدراكها بحواسنا المختلفة كالخوف من الشحاذ أو العسكرى مثلا أو بعض أنواع الحيوان كالحصان أو القرد أو الصرصار

أو غير ذلك

أما النوع الثانى فهو المخاوف غير الحسية كالخوف من الموت ، الخوف من جهنم أو العفاريت أو الغيلان أو غير ذلك ، وكذلك الخوف من الظلام فى حالة الأطفال

وسواء كانت المخاوف حسية أو غير حسية فإن الطفل – شأنه كشأن غيره – يخاف على العموم من الأمور الغريبة عنه التى ترتبط فى ذهنه برباط الخوف

ويختلف ما يثير خوف الطفل باختلاف سنه ، فهو فى شهوره الأولى يفزع من أى مؤثر حاد كالضوء الشديد والصوت العالى ، ولكن لا يميز الأشخاص جيداً ، فهو لا يفزع لمقدم الطبيب ، بل قد يضحك له مما يدعو الأم إلى الإعجاب بالطبيب الذى استطاع أن يروض رضيعها ، ولكنه قد يبكى إذا وضع الطبيب السماعة المثلجة على صدره بينما ينعكس هذا تماماً عند طفل أكبر منه ولا يفزع لقدوم الطبيب – لا كطبيب طبعاً – ولكن كشخص غريب عنه

والطفل فى سن الثانية حتى الخامسة يبدأ فى الخوف من الحيوانات وخصوصاً إذا صاحبتها تجربة مفزعة كعضة أو نباح عال مفاجئ ، وهو يفزع من الشخص الغريب عليه ، وقد يرهبه الظلام فهو يعنى المجهول ، والطفل فى هذه السن يخشى ما يجهله بالإضافة إلى أن تركه فى الظلام يشعره بالوحدة ويبعده عمن يحب ويألفه ، وكلما كبر الطفل قلت مخاوفه وبدأ يدرك المعقول واللامعقول كسبب للخوف ، فهو لن يخاف من الظلام ما دام لم يضره وسوف يألف الشخص الغريب بسهولة أكثر ولكن سوف تصاحب

هذه السن مخاوف من نوع آخر ، وهى مخاوف حقيقية جداً مررنا بها جميعاً وهى الخوف من الرسوب فى المدرسة ، والخوف من تأنيب المدرس ومن فقدان ماء الوجه إذا تسلم شهادة مرصعة بالكحك الأحمر

كل هذه المخاوف طبيعية جداً ولو تركت للزمن لتلاشت بقليل من حكمة الوالدين ، وينتج من هذا طفل سليم النفسية شجاع فى حدود المعقول . وحذر أيضاً فى حدود المعقول .

أبو رجل مسلوخة

مما يقوى الخوف فى نفوس الأطفال « استثارته لحفظ النظام » أو لدفع الطفل لعمل معين أو منعه من القيام بلعب أوضوضاء أو غير ذلك فكثيراً ما نخوف الطفل ليقلع عن اللعب والحركة ليهدأ المنزل حتى يتمكن الوالد مثلا من النوم ، أو من تركيز انتباهه فيما يشغله ، وفرق بين أن يقلع الطفل عن لعبته ونشاطه خوفاً من العقاب وأن يفعل ذلك ليؤدى خدمة لوالده وما دام المقصود هو هدوء الجو فيمكن توجيه الطفل للعب فى مكان آخر أو لنوع من اللعب أكثر هدوءاً أو غير ذلك

وكثيراً ما يهدد الطفل الصغير فى مثل الأحوال التى أشرنا إليها بأن يقال له إذا لم تكف عن عمل معين – سيأخذك العسكرى أو الشحاذ أو الزبال أو أبو رجل مسلوخة أو يضعونك فى غرفة الفيران – وتكون النتيجة أحد أمرين إما أن الطفل لا يقلع عما يفعل ، ولا توقع عليه العقوبة ، فيكتشف بذلك ضعف الوالدين وعدم تحقيقهم لوعيدهم ، ويدرك مبلغ قوته عليهم تبعاً لذلك ، وإما أن يخضع للأمر ، ويهدأ ، ويشل نشاطه ،

ويشب جباناً خضوعاً لغير سبب معقول ، والنتيجة وبال فى الحالتين .

ومما أود الإشارة إليه أيضاً أن بعض الآباء أو بعض الخدم يكتشفون غالباً خوف الطفل من حيوان معين كالكلب أو القط ، ويستغلونه إما لتسليتهم الخاصة أو لدفع الطفل للقيام بعمل معين ، والإحجام عن عمل آخر

أما تخويف الأبناء للضحك والتسلية من جانب الكبار ، فهذا أمر متكرر الوقوع ، فخوف الطفل من القرد مثلا قد يكون مثاراً للضحك عند الكبار من إخوة وخدم ، وأحياناً من الآباء أنفسهم ، وما دام الأمر للضحك والتسلية فلا غرابة أن يندفع فيه بعض الكبار لسرورهم الخاص على حساب تألم الصغار وانزعاجهم وليس هناك أقسى من أن يجلس الوالد أمام ابنه ويثير خوفه ، والولد يصرخ والولد يضحك ، ومن المحتمل جداً أن يكون لتكرار مثل هذه المواقف تأثيراته السيئة فى علاقة الطفل بوالده ، وفى شخصية الطفل وفى سلوكه بوجه عام .

ومن أخطاء الآباء المعروفة أنهم لاستثارة الخوف فى أبنائهم قد يربطونه بأمر لم يقصد به أن يكون مخيفاً وإنما قصد به أن يكون مفيداً ، فالطبيب مثلا وهو إنسان يقوم بخدمات إنسانية واجتماعية مفيدة لمن يتصل به ، ويستعمل اسمه فى كثير من الأحيان أداة للتخويف ، وكذلك الدواء والشرطى والمعلم والمدرسة ، وهذه الموضوعات المختلفة التى يجب أن ترتبط فى ذهن الطفل بفائدتها وقيمتها الحقيقية تستعمل أحياناً – كما قلنا – كوسائل للعقاب أو لاستثارة الخوف ، فينقلب معناها فى ذهن الطفل فتصبح مصدر خوف له ، وتقل مقدرته على الاستفادة منها فأحياناً يعاقب

الطفل بأن يرغم على الندم أو على المذاكرة أو بأن يعطى الدواء ، أو توضع فى عينه قطرة ، أو ما شابه ذلك . هذه الأشياء يجب أن تكون محببة للأطفال وأن يربوا على الإقبال عليها من تلقاء أنفسهم ، ولا يجوز أن تصبح رموزاً للإرهاب ووسائل للتخويف والعقاب

ولعل أشد مثيرات الخوف ذات الأثر الثابت هى خوف الآباء أنفسهم ، فحالات الخوف كغيرها من الحالات الانفعالية تنتقل من فرد إلى آخر بالتأثير مما يطلق عليه أحياناً « عدوى الخوف » وفى هذا المقام نحب أن يذكر الوالدان أن الكثيرين منهم يعانون هم أنفسهم من مخاوف لا يحبون مواجهتها أو الاعتراف بوجودها ، مثل الخوف من الظلام أو الخوف من الوحدة ، وقد ذكرت هذين النوعين من المخاوف بصفة خاصة لأنهما أكثر أنواع المخاوف انتشاراً بين الأطفال ، ولأننا إذا وجهنا السؤال للآباء الذين يشكون من خوف صغارهم من الظلام أو من الوحدة لتبينا فى كثير من الأحيان أن الكبار أنفسهم يعانون من مثل هذه المخاوف وفى هذه الحالات كما فى كثير من الحالات التى تتشابه فيها مشكلات الصغار مع مشكلات موجودة لدى الكبار ، لا يجوز أن نسرع فنلقى اللوم على الوراثة

أولا إن هذه الصفات ليست من الصفات التى يمكن أن تنتقل بالوراثة

وثانياً لأن مرد السبب إلى الوراثة يعنى ضمناً أن يقف الآباء من المشكلة موقفاً سلبياً إذ ما عسى أن يصنع المرء مع عيب وراثى

وقد يقول الأب أو الأم للطفل فى تأكيد شديد وبتكرار إن الكلب الذى ينبح لن يؤذيه ، ولكن إذا كان الوالد نفسه يخاف الكلاب فسوف

يظهر هذا الخوف عليه مهما حاول إخفاءه ولن يجدى أى تأكيد منه للطفل بأن الكلب لن يؤذى الطفل من الخوف ما دام هو فى حماية والده.

إن الطفل لن يستغرق وقتاً طويلاً لكى يعرف أن والديه يخافان من هذا الشيء بدلا من بذل الجهد فى إخفاء الخوف ، وهو جهد لا يجدى فى معظم الأحيان ، فليبذلا الجهد فى التخلص منه ، ذلك أجدى لهما وللطفل

خوف الآباء على الأبناء

وكثيراً ما يحدث أن يبدى بعض الآباء والأمهات خوفاً وقلقاً على أبنائهم وتنتقل هذه الحالة عادة إلى الأبناء فيصبحون بذلك قلقين على أنفسهم ، فإذا جرح الطفل جرحاً صغيراً ، أو وقع على الأرض ، وارتفعت درجة حرارته نجد الأم فى حالة ذعر وتظهر – بسخاء شديد – كل علامات الخوف من جرى وارتباك واصفرار الوجه وغير ذلك ينتج من هذا ان الطفل يصاب بذعر ، وبعد أن كان لا يشعر بأى ألم أو بألم قليل يمكنه تحمله ، يصير عادة غير قادر على تحمل الألم وفى العادة نجد أن الأسرة التى يقلق فيها الآباء على أبنائهم ينمو الطفل فيها وهو سريع التأثر ، شديد الحساسية لأقل ألم ، شديد الاهتمام بنفسه ، فإذا أصابه جرح صغير تألم وبكى وبالغ فى الاهتمام به ، وإذا أصابه صداع خفيف اعتكف . إلخ وبهذه الطريقة يتضاعف مظهر المرض الخفيف الذى قد يكون لديه

نجد عادة أن أسراً بمجموعها من هذا تكون عادة سريعة التأثر ، كثيرة المرض ، وأفرادها مفرطون فى العناية بأنفسهم ، ويغلب أن يكون هذا

هو نوع الجو الذى تتكون فيه حالات الرعب من المرض

وإنى أعرف طفلا نشأ هذه النشأة ، بكى شديداً فى يوم ما روى إلى أمه يقول لها إن رجله قد جرحت . فنظرت الأم إلى الجرح المزعوم ، فإذا به لونه أحمر وليس بجرح ، وسببه أن الطفل كان يلبس جورباً جديداً أحمر اللون وابتل بالماء فترك أثراً أحمر على ساقه فإذا لم يكن هناك جرح ولا دم فمن أين نشأ الخوف والتألم ولماذا الصراخ . نشأ هذا من أن الطفل شديد الخوف على نفسه ، لأن من حوله شديدو الخوف عليه ، وفى العادة نجد الخوف من الآلام الجسمانية ، والخوف من الأمراض والتعرض فى كثير من الحالات للأمراض الهستيرية ، وتمركز المرء حول نفسه ، خوفاً عليها من كل طارئ خارجى ، سببه امتلاء الجو المنزلى بالقلق والخوف على من فيه . ومن المهم أن نتذكر أن الخوف على من فى المنزل يكون فى العادة إسقاطاً للخوف على الذات .

فلتكن إذن خطة الآباء والأمهات إذا أصاب أبناءهم شيء ما أن يكونوا عمليين فيلتزموا الهدوء ، ويضبطوا انفعالاتهم ويقللوا من جزعهم ، ومن كل ما يركز انتباه الطفل على ما أصابه من مرض أو غير ذلك . وليقوموا بعمل إيجابى هادئ لتخفيف الإصابة وعلاجها

الخوف من الظلام

وهناك نوع من الخوف فى غاية الخطورة ، وهو الخوف من المسائل المجهولة غير الحقيقية ، أو التى لا يمكن للطفل إدراكها إدراكاً حسياً ، كالغول وجهنم والموت . والخوف من مثل هذه الأمور يكون عادة أعمق أثراً

فى حياة الطفل من الخوف من المحسوسات . والواجب هو عدم إثارتها إطلاقاً وإذا كانت موجودة فيجب البحث عن سبب تكوينها ، وإزالتها من أساسها مع شرح حقيقتها – قدر الإمكان – بما يلائم عقل الطفل ، أو السماح له على الأقل بالتحدث فيها وعدم كبتها بإعطاء الموقف الصحيح إزاءها

الخوف من الموت

ومن أمثلة هذا النوع الخوف من الموت – ويصاب كثير من الأطفال به بدرجات مختلفة ويكون سببه أحياناً أن يعيش الطفل مع كبار يخاف أحدهم من الموت بشكل بارز أو قد يكون سببه أن يموت للطفل قريب أو رفيق له به صلة شديدة . والسبب الأصلى لهذا أن موت القريب المهم يهز فى الطفل ثقته فى بيئته التى يحتمى بها وينتمى إليها هزاً عنيفاً ، فتصبح دنياه فى نظره خلواً من الأمن فكما ماتت جدته مثلا يصح أن يموت أبوه أو أن تموت أمه فى أى لحظة ، أى أن بيئته تصبح خلواً من القاعدة الثابتة ، مضطربة ، أو عرضة للاضطرابات والانقلابات ، وهذا يؤدى إلى اضطرابه .

وللحصول على بعض الوقاية للأطفال من هذا النوع من الخوف ، يحسن أن يكون بالمنزل أو فى حجرة الطفل بعض الحيوانات ، ولا بد أن يموت بعضها فيدرك الطفل الموت بذلك إدراكاً طبيعياً هادئاً خالياً مما يحيط بموت الإنسان عادة من انفعالات . وكذلك يجب ألا يحاط الموت – بقدر الإمكان – بما يحاط به من تقاليد تثير فى الأطفال رعباً شديداً

دون أن يدركوا ذلك غالباً وإذا لم يكن هناك بدٌّ من متابعة هذه التقاليد ، فيحسن إبعاد الطفل من جوها إلى أن تنتهى على أنه من الخطأ الفاحش ، إذا مات للطفل قريب محاولة التمويه عليه وعدم إيقافه على الحقيقة بجو غير عادى يثير الشكوك للطفل وحيرته والحيرة أشد أثراً فى نفس الطفل من الصدمة الناشئة عن المواجهة المؤلمة للواقع

ويحدث أن يسمع الطفل بوفاة جار ليس له به قرابة فيسأل والدته عن الموت ومعناه وميعاد حدوثه إلخ ويندفع إلى السؤال بدافع الرغبة فى الاطمئنان ، وهذه فرصة ذهبية للتحدث الهادئ مع الطفل عن الموت لأن الخوف من الموت يكون أسوأ أثراً إذا كانت الخبرات الأولى بالموت ترتبط فى ذهن الطفل بصدمة شديدة حادة تتعلق بقريب أو عزيز

يمكن أن يكون خوف الأطفال من الظلام أمراً طبيعياً كما يمكن أن يكون غير طبيعى وخوف الطفل من الظلام يكون عادة لارتباط الظلام فى ذهنه بالعفاريت أو ما شابهها مما يثيره الكبار ولكن قد يكون الخوف من الظلام – كما قلنا – طبيعياً وذلك لأن الطفل فى صغره له خيال قوى وخبرة ضئيلة ولأن الظلام نفسه يساعد على ظهور الخيالات والأشباح فالظلام فى ذاته لا يثير خوفاً غريزيًا فطريًا وإنما يخيف بما يستثيره فى الأطفال عادة بطبيعته من عناصر مخيفة ، وذلك لأنه إن كان الظلام حالكاً فإنه يكون فى إدراكه مجرداً من الحدود والنهايات ، وإن كان الظلام جزئياً فإن ما به من مرئيات يسهل أن تتحول فى نظر الطفل إلى أشباح غريبة

الآباء يعرفون العلاج

أكثر المخاوف عند الأطفال الذين كانت أعصابهم تستثار إلى درجة التوتر بسبب الشجار حول تناول الطعام والتدريب على ضبط وظائف الإخراج ، أو الأطفال الذين لم تكن لديهم الفرصة لتنمية استقلالهم وخروجهم من دائرة المنزل ، أو الأطفال الذين قد شحنت رؤوسهم بالقصص الخرافية المخيفة أو التحذير المتكرر فالقلقّ الذى تجمع لدى الطفل قبل ذلك يبدو كأنه قد تبلور بعقل خياله الجديد إلى مخاوف محدودة وقد يفهم من هذا الحديث أننى أقصد أن الطفل الذى يتربى لديه أى خوف هو طفل قد ساءت معاملته فى الماضى ولست أريد أن أصل إلى هذا الحد ، فإنى أعتقد أن بعض الأطفال يولدون أكثر حساسية واستعداداً عن الآخرين ، وكل طفل – بصرف النظر عن مدى العناية التى بذلت فى تربيته – لابد أن يخاف من شىء ما.

والطفل الذى يخاف لا يسهل عليه تكوين الأصدقاء ويفضل أن يبقى مع نفسه ، وليس من العسير علينا أن نتبين السبب فى ذلك ، فإن العالم الخارجى للطفل الوجل ليس مصدر أمان وطمأنينة له ، ولذلك فإنه يتجنبه لأنه بذلك إنما يقى نفسه الدخول فى مشاكل جديدة تجعله يشعر بالعبء والتعاسة

فالخوف يفسد الحياة ويجعل منها عبئاً يصعب احتماله ، والحياة يمكن أن تكون سارة وبهيجة ، ويمكن أن نستمد منها الكثير من ألوان المتعة لو خلت نفوسنا من معظم هذه المخاوف أو لو تحررنا منها

ينبغى ألا يكون هدف الطفل بالأمر الذى يستهين به الكبار أو بالذى يعدونه شيئاً تافهاً لا يستحق منهم الانتباه أو الاهتمام بمجرد أن يظهر الخوف على الصغير منه تافهاً فى نظر الكبار ، ولكنه فى نظر الطفل هام ، وهام جداً ، وهذه هى الزاوية التى ينبغى أن ينظر منها الكبار إلى ما يخاف منه الصغير

فالواجب على الوالدين هو الامتناع عن استغلال شعور طفلهما بضعفه وقلة حيلته واستعداده الطبيعى للخيالات الواسعة ، وعليهما أن يبحثا عن طريق آخر لإلزامه بطاعتهما ، وليكن هذا الطريق هو الحزم والحب

أما إذا أخطأ الوالدان فى تربية طفلهما وحصل ما حصل وأنتجا طفلا خوّافاً فالعلاج طويل يبدأ طبعاً بالامتناع عن تهديد طفلهما وتخويفه ثم شغله عن هذه المخاوف بإعطائه فرصاً أكثر للخروج من المنزل للاختلاط مع الأطفال فى مثل سنه ، فكلما زاد انشغاله قل اهتمامه بالمخاوف والعفاريت

فإذا كان الطفل يخاف من الظلام فيمكن أن ينام الطفل فى غرفة بها ضوء ، ويقلل الضوء ليلة بعد أخرى ، ولا مانع من أن يحتفظ بمصباح « سهارى » ولا مانع من « بطارية » يحتفظ بها الطفل تحت وسادته ليضيئها إذا شعر بالحاجة إلى ذلك ، ثم يفهم الطفل بالدليل المحسوس وبالمناقشة أن الظلام لا يدعو لكل هذا الخوف . ومن أهم العوامل التى تساعد على زوال الخوف من الظلام أن يكون الكبار أنفسهم ممن لا يخافون من الظلام . ويجب أن يراعى لوقاية الطفل أو علاجه من الخوف من الظلام نوع القصص التى تحكى له قبل النوم مباشرة ، فيجب أن تنتقى بحيث تخلو بقدر الإمكان من عناصر الإزعاج ، ويجب أن يمتنع عن استثارة الخوف عند الأطفال

وهم فى الظلام ، لأن الظلام يصعب على الأطفال تحديد موقفهم فيه ، خصوصاً إذا اضطربوا

كذلك ينبغى على الآباء والأمهات ألا يهددوا الطفل بالعفاريت أو برجال البوليس أو أبو رجل مسلوخة إلخ مع تجنب الأفلام والقصص الخيالية العنيفة ، فالطفل لديه ما يكبته من تخيلاته الذهنية – كما يجب أن يعملوا على أن تنتهى بسرعة أية معركة قد تنشب حول الطعام أو بسبب الابتلال ليلا ، مع تجنب إشعاره بالإجرام من أجل الأخطاء الصغيرة ، فالتهديد بعدم الرضا عنه ، أو عدم حبه ، هو أصعب ما يستطيع أن يتحمله لأنه يزيد من إحساسه بعدم الاطمئنان

أما فى حالة الخوف من حيوان ما ، ويكثر ذلك عادة بين الأطفال حتى ولو لم يمر الطفل بأى تجربة قاسية ، فإذا كان الطفل يخاف الكلاب مثلا فيستحسن أن نساعده على تربية كلب صغير فيطعمه ويتعهده ويحميه ويلاعبه ويلاحظ نموه يوماً بعد يوم إلى غير ذلك ، ثم يصح أن نوجه ذهنه إلى دراسة أنواع الكلاب ومزايا كل نوع وعاداته وبعبارة أخرى نجعله يدرك أنواع الكلاب وخصائصها إدراكاً واضحاً يربطها فى ذهنه برباط جميل وينمى اهتمامه بها وشوقه إليها ، ويجب كذلك أن نوضح له مدى ما يجب أن يتبعه إزاء هذا الحيوان من حرص واحتياط

وهذا يبين بوضوح الخطة التى يمكن اتباعها للوقاية من الخوف وعلاجه وهى توضيح الغريب وتقريبه من إدراك الطفل ثم ربط مصادر الخوف بأمور سارة محببة بدلا من ربطها بأمور تثير الخوف فحسب ، وبذلك يمكن بسهولة تحويله إلى مصدر تعليمى قيم للطفل نفسه .

وأياً كان الحال ، فليتذكر الآباء والأمهات أن الخوف يتكون غالباً بالاستثارة والتكرار فالقاعدة العامة إذن هى منع الاستثارة وعليهم أن يتذكروا أن فهم الشيء على حقيقته وتكوين عاطفة طيبة نحوه من أهم العوامل التى يجب إقامتها لتعمل ضد الخوف

ومن أهم العوامل التى يجب توكيدها أن الخوف ينتقل بالإيحاء والمشاركة الوجدانية ، ولنتذكر أن إيحاء السلوك أقوى من إيحاء الألفاظ فإذا أردت لأطفالك ألا يخافوا الدواء مثلا ، فلا معنى لأن تظهر علامات التألم وأنت تأخذ الدواء فى الوقت الذى تعطى فيه الطفل دواء ثم تطلب منه التجلد إزاءه ، فعليك أنت أولا ألا تخاف هذه الأشياء ، وإن كنت تخافها فلتروض نفسك على تحملها ، وإذا استحال عليك ذلك فاستر خوفك عن أطفالك

ويجب على الآباء أن يروضوا أنفسهم على عدم القلق على أبنائهم ، أو أن يخفوا عنهم قلقهم إن كان خارجاً عن إرادتهم ، وأن يقللوا من التحذير والمبالغة فى النقد وأن يمتنعوا عن الاستهزاء بالأطفال والسخرية منهم

وعن الآباء أن يتذكروا كذلك أن أغلب الأخطاء فى تربية الطفل سببها أن المرء ينسى ما كان فيه فى عالم الطفولة بسرعة وسهولة فعالم الأطفال عالم دقيق حساس سريع التأثر ، شديد الانفعال ، قليل الإدراك نادر الخبرة ضئيل الحيلة ، وهذه من أهم العوامل التى تسهل احتمال نمو الخوف بصورة غير سوية

الحب الغذاء النفسى لأبنائنا

الحب للطفل هو الغذاء النفسى الذى تنمو وتنضج عليه شخصيته ، وكما يتغذى جسمه على الطعام فإن نفسه تتغذى على الحب والقبول وكما أن جسم الطفل ينمو مع الغذاء الصحى لا مع أى لون من الطعام ، فإن نفسه أيضاً تنمو مع الحب الصحيح الحب المستنير الواعى ، فليس كل حب يقدم ، مع الأسف ، بالغذاء الملائم المفيد لنفس الطفل

والحب الواعى المستنير يقتضينا أن نبدأ أولا بإحاطة الطفل بجو من الدفء ، دفء شعورنا وحناننا وإقبالنا ، وبإعطائه من أنفسنا فى سخاء ، فإن ذلك خليق بأن يملأه ثقة بنا واطمئناناً إلينا ، وبالتالى ثقة بنفسه واطمئناناً إلى العالم حوله ، وهو بأشد الحاجة إلى هذه الثقة لكى يخطو الخطوة التالية فى مسيرته نحو النضج

أما هذه الخطوة التالية ، فهى خروج الطفل ببطء تدريجيًّا عن أنانيته وتركيزه على نفسه ، إن كل ما يجرى حوله لامعنى له فى أول الأمر من حيث ما يرتبط بنفسه فقط ، ويرى أن رغباته حق مطلق له لا سبيل إلى الإبطاء فيه أو الإغضاء عنه ، كما يصر على أن يوجه الانتباه كله إليه وكأن الدنيا لا تحوى سواه ، غير أنه إذا بدأ يطمئن إلى نفسه وإلى الدنيا من حوله استطاع رويداً أن يخرج عن الذاتية المطلقة وأن يتجه فى بطء إلى قدر يسير من الموضوعية يطرد زيادة كلما تقدم به العمر

وهذه الموضوعية تساعده حقًّا على أن يدرك أن للغير أيضاً رغبات وحقوقاً

قد تتعارض فى بعض الأحيان مع رغباته وحقوقه ، وأنه لا بد له أحياناً من قبول الحل الوسط الذى قد يكون من شأنه إرجاء بعض رغباته أو التنازل عنها أى أنها تساعده على أن يخرج عن تركيزه على ذاته وعلى أن يقبل المشاركة ، ومتى انبثقت هذه القدرة فى نفس الطفل فقد أمنا عليه من عثار الأنانية وحق لنا أن نطمئن إلى سيره قدماً فى طريق النضج الصحيح .

ماهو الحب ؟

إنه يشمل أشياء متعددة ، فمن الصعب أن يكون لدينا كلمة واحدة تعنى نواحى متعددة ومرتبطة ببعضها لهذا الإحساس الهام ولذلك ، ينبغى عند معاملة الأطفال (والكبـــار أيضاً) معرفة وفهم بعض المصطلحات اللازمة للحب والصفة الهامة للحب واللازمة لنمو شخصية الطفل السوى هى التى تقول « أحب هدى ليس لما تفعله أو لا تفعله بل لأنها هدى » . هذا النوع من الحب غير المشروط ، المتقبل للطفل على ما هو عليه لا يمكن الاستغناء عنه لنمو شخصيته ، بل هو الغذاء اللازم لضمان سلامة الشخصية السوية حتى فى المراحل المتقدمة الأخرى من العمر إنه هذا النوع من الحب الذى يدعو إلى أنى « أحبك على الرغم مما تفعله » « أحبك لأنك موجود وحى »

من الشائع فى مجتمعنا المتعلم إعطاء الطفل الإحساس بأن قبوله من آبائه ومدرسيه وأصدقائه يتوقف إلى حد كبير على ما يعمله هذا يدعو الطفل إلى الاقتناع بما يعنى « إذا كنت تعمل جيداً فسوف أحبك » كل ما تعمل عملا متقناً يكون احتمال نجاحك أكبر وكذلك أحبك أكثر

« كل ما تهمل فى عملك تخطئ أكثر وأحبك أقل » وهذا الفهم الخاطئ والشائع عامل كبير فى إحساس الطفل بالخوف ، وله تأثير غير بناء على نمو شخصية الطفل ، ويعتبر السبب الأساسى فى كثير من المشاكل الحالية والمستقبلة فى حياة الطفل

ويمكن إدراك التشابه فى ذلك بما يحسه الزوج بالاطمئنان والرضا عند معرفته أن زوجته تحبه بدرجة لا تتعلق إطلاقاً بنجاحه أو فشله ، ولا تعطى له الشعور بأنها تحبه أكثر إذا كان ناجحاً فى حياته أو تحبه بصورة أقل إذا كان غير موفق ولكن تشعره بالحب الدائم سواء نجح أو فشل أو مثال آخر

الزوجة التى تعيش وفى اعتبارها أن حب زوجها يتوقف مباشرة على وجود شبابها وجمالها وعلى معرفتها تنظيم وإعداد الطعام ، وعلى كيفية تصرفها بنجاح مع متطلبات المجتمع ، بالمقارنة مع الزوجة التى تشعر بأن زوجها يحبها لشخصها ، هذا الحب الذى لا يتعلق إطلاقاً بجمالها أو قدرتها على عمل ما

هذا النوع الأخير ، هو الذى أقصده ، حين أدعو إلى أن الحب هو أهم الأركان الأساسية اللازمة لنمو شخصية الطفل السوى هذا هو نوع الحب الذى يساعد على نمو الثقة بالنفس ، ويخلق فى الفرد إحساسه الطيب نحو نفسه ، ويؤدى إلى إحساسه بالرغبة الصادقة أن يحاول ويغامر فى حياته بدون خوف من نتيجة الفشل هذا هو نوع الحب الذى يخلق الأبطال ، ويساعد على نمو أطفال واعين مدركين للحياة

هذا الحب حيوى وهام وضرورى للطفل ولا سيما فى سنواته العشر

الأولى من حياته ، وينبغى على الآباء منحه للطفل بسخاء فى هذه الفترة ، (وهذا لا يعنى أن هذا الحب غير هام فى مراحل العمر الأخرى من الحياة).

فالفشل فى إقناع الطفل فى مراحل نموه المختلفة بأن هذا الحب هو إحساس والديه نحوه ، يكون السبب الوحيد والهام الذى يؤدى إلى انحراف شخصية الطفل فى مراحل الطفولة المتأخرة أو فى المراهقة أو فى الرشد

ومما لا شك فيه أن معظم الآباء لديهم هذا الشعور بالحب والحنان نحو أطفالهم إذن كيف يمكنهم نقل هذا الإحساس إلى أطفالهم ؟ يبدو لى أن هناك ثلاثة أخطاء شائعة تصدر عن غير قصد ، فيشعر الطفل أن والديه يحبانه لما يفعله وليس لشخصه ولكى يمكن التخلص من هذه الأخطاء ، ينبغى فهم ما يأتى بدقة وتعمق

١ – ينبغى أن تكون عدم الموافقة موجهة نحو ما يفعله الطفل وليس نحو الطفل نفسه

الأفضل أن يكون واضحاً فى ذهن وتفكير الآباء والمدرسين والموجهين ، وكذلك إلى الطفل من البداية الحقيقية التى تدعو إلى أنه على الرغم من عدم الموافقة على ما يفعله الطفل فهو مقبول لدى الجميع ويمكن الإدراك جيداً بأنه ليس هناك أى تعارض فى تصحيح ونقد أخطاء الطفل ، وفى الوقت نفسه مساعدته على الإحساس بحبنا له كإنسان مهما فعل ولكى نوضح هذه الفكرة أكثر ، ليس هناك أى تعارض من نهر الطفل ونقده لسوء سلوكه ثم رفعه ، ومعانقته أو التعبير له بالحب بالكلمات أو القبل وفى الحقيقة هذه الأفعال ليس بها أى تناقض أو تعارض ، ولكن لها تأثير

فعال من ناحيتين

١ – يهمنى أن أصحح سلوكك لأنى أحبك

٢ – لا أوافق على أفعالك ، ولكنى أحبك حبًا جمًا دون النظر إلى ما تفعله وفى الحقيقة ليس هناك أى تعارض فى رغبة الأب الصادقة فى تعليم وحب طفله ، وكذلك المدرس الأمين بلاشك يشعر بالفخر لمحاولته المخلصة فى تحسين سلوك تلميذ عن طريق الحب

وأيًا كان الحال فليس هناك أى تعارض فى أن يدرك الطفل ما يلى « أحبك حبًا مستقلا عن سلوكك ، أحبك حتى لو أدت تصرفاتك إلى إغضابى ، أحبك كثيراً كى تسلك سلوكاً حسناً »

وبذلك يحاول الطفل أن يعدل من سلوكه عن رغبة وليس عن رهبة

٢ – ينبغى أن يمتدح الطفل لشخصه أكثر مما يمتدح لما يأتى به من أفعال

ينبع السبب الثانى من عدم فهمنا لدور الطفل من تحمسنا الزائد فى أن نرى أطفالنا ينجحون فى مجتمعنا المعاصر وفى هذا الاتجاه نمتدح ونكافئ أطفالنا حين يبذلون مجهوداً جيداً ويحصلون على أى مستوى من النجاح مثال ذلك ما يشعر به الآباء من الفرح والرضا للتقدير الجيد الذى حصل عليه الطفل ، أو لأى نوع من التفكير أو العمل المنتج الذى يقوم به الطفل ، وبهذا يصبح من السهل أن يشعر الطفل أن هذه الأفعال هى المصدر الوحيد الذى عن طريقه ينال المدح والمكافأة والقبول والحب

وأنه فى غاية الأهمية أن يغدق على الطفل الكثير من المديح والحب دون ربطهما بالتحصيل والنجاح ينبغى أن تعطى الفرصة للطفل بالشعور بأن التقدير الجيد والتفكير المنتج يستحقان الإعجاب والمديح والتشجيع أو المكافأة ومع ذلك ينبغى أن يشعر أيضاً بأنه يمكن أن يمنح بسخاء المديح والتشجيع والحب دون أى ارتباط بأى شىء آخر حتى فى الحالات التى يتعرض فيها للنقد

٣ - ينبغى أن يكون الحب متبادلا

ينبغى أن يدرك الآباء الصعوبات التى كان يعانى منها من سبقونا فى علاقاتهم ببعض فإذا كان إنسان يحب آخر بكل مافيه من مساوئ وعيوب دون أن يعلم الأخير بهذه الحقيقة ، فهذا الحب لا يكون له وجود بل ينبغى أن يكون الحب متبادلا فإنه لا يكفى أن يشعر الإنسان بالحب ، بل ينبغى أن يشعر بحب الطرف الآخر ويمكن للآباء التعبير عن حبهم لأبنائهم بوسائل متعددة أو بالحركات البسيطة كل يوم ، وبعض هذه التعبيرات غير المباشرة عن الحب هى

١ - احتضان الطفل فى فراشه ليلا ، على الرغم من ارتكابه بعض الأخطاء نهاراً مع استمرار احتضانه حتى إذا كان وصل إلى سن لا تدعو إلى هذا النوع من التعبير

٢ - الإشارة إلى الطفل بهذه العبارة « أصبحت الآن رجلا أو شاباً » فى الوقت الذى يرغب فيه أن يكون كبيراً

٣ - فى حالة ما إذا أخطأ الطفل فى عمل ، فالأفضل الإشارة إليه

بذلك عن طريق الضغط على الشفاه بدلا من لومه وإحراجه أمام أصدقائه .

٤ - احترام شخصية الطفل فى كل المواقف ومحاولة أخذ رأيه فى اختيار حاجياته وأشيائه الخاصة بقدر الإمكان

٥ - تجنب الإشارة أو امتداح أى طفل آخر سواء يعرفه أو لا يعرفه الطفل فى جميع المناقشات

ولكن لا تكفى هذه الأفعال للتعبير عن الحب للطفل سواء أكان طفلا أم مراهقاً أم راشداً . ولذلك كان من الضرورى فى معاملة الأطفال التعبير مباشرة عن الحب كالقول « أحبك » أو « إنك طفل لطيف » إلخ وأفضل وقت للتعبير عن الحب للطفل حين لا يكون منصرفاً لأى عمل ما ، وربما يكون ذلك الوقت حين يلجأ الطفل إلى غفوة أو وقت النوم مثلا

وهناك طريقة رقيقة للتعبير عن الحب للطفل ، وذلك بامتداحه وسرد صفاته الحميدة على مسمع من الطفل أمام الأقارب ، أو الضيوف . فهذه الطريقة التى بواسطتها نتحدث عن الطفل بطريقة غير مباشرة تساعد كثيراً على التقرب والتآلف مع الطفل ولكن لنحرص على ألا نقلل من شأن الطفل وألا نذكر مساوئه لأى فرد آخر على مسمع من الطفل

مشاركة الطفل لحبك

قليل من الآباء الذين يشعرون بقدر متساو من الحب لكل من أطفالهم ، وفى الغالب هم يحاولون ويكافحون ليظهروا حبًّا متساوياً لكل طفل لإحساسهم بأن هذا هو العدل ولكن هذا المجهود لا قيمة له

وهناك رأى أعتقد أنه صائب يحتاج إليه كل طفل ، ومن

حقه أيضاً أن يعتقد بأنه الطفل المفضل لدى والديه وبأنه لا ينال قدراً من الحب مساوياً مع إخوته وأخواته بل يمنح من الحب بقدر أكبر من أى منهم

ينبغى أن يشعر الطفل بأنه المفضل وذلك لوجود صفات ومميزات خاصة له وحده ، فمثلا أفضل منى لأنها الكبرى ، وهدى لأنها الصغرى ورامى لأن شعره جميل ، فيشعر الطفل أنه مقبول ومحبوب من والديه لصفة فيه وليس لعمل قد قام به أو سوف يقوم به فإذا شعر الطفل أنه المفضل لأنه أكثر أدباً أو أحسن سلوكاً أو أكثر رقة ، فإن هذا الاتجاه سوف يعجزه عن الاستمرار على هذا النحو أما إذا كان شعور الطفل أنه المفضل دائماً لأنه قائم ولصفاته الشخصية المميزة فسوف يبعث ذلك فى نفسه الإحساس بالهدوء والرضا والاطمئنان

فإذا كنا نحب الطفل حبًّا مستنيراً واعياً ، لأهمية قدراته وحدوده ، ويقظته لرغباته وحاجاته ، فإن فى ظل هذا الحب سينمو الطفل أيضاً مطمئنًّا، وسيدفعنا هذا الحب إلى أن نقف منه موقف التشجيع والمساندة ما احتاج إليهما فى كفاحه الدءوب لممارسة قدراته تحقيقاً لحاجات نموه لن يخطر لنا أن نقوم عنه ببعض ما يود فنحرمه من لذة الاكتشاف والأداء اقتصاراً للوقت والجهد ، فإذا أصاب نجاحاً فى جهوده التى نراها صغيرة ويراها كبيرة أحس منا بالغبطة ولقى الثناء ، وإذا أصاب فشلا لمس منا الهدوء والتشجيع على أن يعيد المحاولة من جديد ، فإذا به يزداد اطمئناناً إلى العالم حوله ، وإذا به يبدأ يشعر بالثقة بنفسه ثم تستمر الطمأنينة تحوطه والثقة تنمو معه حتى يكبر ليكون إنساناً متزناً هادئاً واثقاً من نفسه فى غير

خيلاء أو زهو ، قادراً على مقابلة تحديات الحياة فى فهم وعزم ، بعيداً عن أن يزهيه النجاح أو يقعده الفشل ، ناعماً سعيداً بما يحقق ، منطلقاً إلى المستقبل فى إيمان وتفاؤل سيد قدره ومصيره ، فى نطاق ما يملك الإنسان وسلطان على القدر والمصير

إذا كان حبنا للطفل « الحب الغشيم المغلق » الذى يخاف عليه الأذى فيحوطه بعناية مسرفة نرقبه فى جزع ونحصى عليه خطواته نكاد نمنعه من أى نشاط مستقل خشية مما يتعرض له من ضرر ، سينتقل هلعنا على الطفل إليه فيباعد بينه وبين الطمأنينة ، وسيبدأ ينظر إلى العالم حوله وكأنه مستودع أخطار لا يعرف متى أو كيف أو من أين ستدهمه والطفل إذا ملأ الخوف نفسه قيد متطلعاته ، وخنق قدرته على الانطلاق إلى الخبرة فقعد دونها كيف ننتظر منه إذ يكبر أن يكون إنساناً ، عارفاً قدراته مطمئناً إليها واثقاً من أنها ستكون عدته وعونه فيما يقابل من مشاكل الحياة

فشعور الطفل بتقدير الكبار من أفراد أسرته لما يفعل ينبه فيه خير ما عنده ويبعث الحماس للقيام بخير ما يستطيع أما من لقى الاستهانة والتحقير أو الإشاحة وعدم الاكتراث فلن يبعث ذلك فى نفسه إلا الشعور بالمرارة والعجز ذلك أن قدرات الطفل تتغذى وتنمو على التشجيع ولكنها تضمر وتموت على التقريع والتثبيط والإهمال ومعنى ذلك ألا ينتقد الطفل أو يراجع إذا أخطأ ، وألا يحفظ من التعرض لأخطاء يؤذيه التعرض لها فعلا ، ولكن ما أبعد الفارق بين المراجعة فى رفق والوقاية فى هلع أو الإشاحة فى إهمال وازدراء أو اللوم فى تحقير وعنف

فإن الكبار الذين تعوزهم الثقة بالنفس كانوا رجالا لم يحاطوا بالفهم

والمساندة والتشجيع ، ولم تسعد قلوبهم بكلمة ثناء قط ولم يحاطوا بالحب الواعى المستنير الذى يبعث الاطمئنان والثقة فى نفوسهم

مما سبق يتبين أن قوة الخلق والشخصية والشجاعة والعزم والأمانة والاتزان والثقة بالنفس والرغبة فى أن يكون الإنسان خيراً إنما تنبعث كلها من شعور الطفل بدفء الجو الذى يعيش فيه ، ومن خبرته بأنه موضع الحب والثقة والاحترام و بأن جهوده تلقى من المساندة والتشجيع ثم من الثناء والتقدير ما تستحقه . وما أكثر ما يعرض للأسرة من فرص لتنمية هذه الفضائل فى صغارها كل يوم

فإذا شئنا أن ينشأ أبناؤنا على الثقة والاطمئنان وأن يتجهوا إلى العمل البناء فى تعاون وإيثار وأن يجدوا السعادة فى البذل والعطاء فلنعطهم الحب أولا لنعطهم الحب الواعى المستنير اليوم ، إذا شئنا لهم أن يعطوه لنا بدورهم فى غد . لنعطهم الحب فإن فاقد الشىء لا يعطيه ليكن حبنا لهم حب الإيثار لا الأثرة ، حب الإعطاء لا الأخذ . حب التضحية والبذل ، الحب الذى ننسى أنفسنا فيه دائماً ونذكرهم أبداً ، حتى يمهد لهم السبيل ليكونوا الأفراد الذين نود ويود الوطن معنا أن يكونوا .

الصحة النفسية للطفل فى عامه الأول

تعتبر خبرات الطفل الأولى مع بيئته التى يعيش فيها فى سنواته الأولى فى غاية الأهمية ، فهو يتعرض خلال هذه الفترة الحساسة من حياته إلى مشاكل نفسية تحدث له بصورة مستمرة ومتكررة مما يدعو إلى أن يدرك الآباء أن

الطفل فى السنة الأولى من حياته له حياة ذهنية نشيطة أو يحتاج إلى حد كبير إلى العناية والعطف والتفهم لحاجاته النفسية أثناء رعايته

١ – التغذية

تعتبر من أهم مشاكل فترة الرضاعة ، إلا أنها يمكن أن تستمر حتى مرحلة الطفولة وأن تمتد إلى مرحلة الرشد مع اختلاف مظاهرها فى كل مرحلة ولا يسمح المجال فى هذا المقال بتناول الأسباب الجسمية لهذه المشكلة ، ولكنى سوف أذكر النواحى النفسية مع توضيح تأثير العوامل النفسية على الجهاز الهضمى ، فالخوف له تأثير واضح على وظيفة المعدة والعصارات المعدية والأمعاء ومما لا شك فيه أن حالات كثيرة من زيادة الحموضة والإمساك والقئ والإسهال يمكن فهمها وعلاجها إذا تم ذلك على أنها أعراض للقلق النفسى .

فالرضاعة الطبيعية للطفل لها أهمية كبيرة ، وقد تبين أن معظم الأطفال الذين يحولون إلى العيادات النفسية بأعراض صعوبات التغذية أو الاضطراب النفسى أو الانحراف السلوكى كانوا يعانون فى السنوات الأولى من عمرهم من اضطراب التغذية . فى إحدى الإحصائيات تبين أن نحواً من حوالى ٦٩ طفلا حولوا إلى العيادة النفسية لظهور بعض أعراض القلق النفسى وحوالى ٢٠ – ٢٩ ٪ كانوا يعانون من صعوبات التغذية فى سنواتهم الأولى ، وحوالى ١٣ منهم كانت فترة رضاعتهم الطبيعية قصيرة ، ثم بدأت الصعوبات تظهر عند انتقالهم إلى الرضاعة الصناعية

فالرضاعة الطبيعية هى الأداة الطبيعية التى توفر للطفل أولى الحاجات

النفسية ، أى الشعور بالطمأنينة ، وحرمان الطفل من ثدى أمه ، هو حرمان له من لذة الحياة بمعناها العميق ولذا كانت الأمومة الطبيعية ضرورة حيوية لصحة الطفل الجسمية والنفسية والعقلية معاً ولكى تتم الرضاعة الطبيعة بصورة مرضية لإشباع حاجات الطفل بمعناها الشامل ، ينبغى أن يتبع فيها النظام وعدم الاضطراب فى مواعيد الرضاعة مع مراعاة ألا تكون الرضاعة متقطعة عند البدء فيها

أما إذا كان الطفل لا يحصل على الكمية التى يحتاجها من الرضاعة الطبيعية ، أو أن صحة الأم ليست فى حالة مرضية تسمح بإعداد الطفل بالرضاعة الطبيعية اللازمة فينبغى فى هذه الحالة استخدام الرضاعة الصناعية مع الاحتفاظ ما أمكن ذلك بالرضاعة الطبيعية ، حتى إذا كان ذلك من ثدى واحد وينبغى أن تكون الرضاعة الصناعية أقرب ما يمكن إلى الرضاعة الطبيعية فيجلس الطفل على حجر أمه وتمنحه الرعاية والاهتمام اللازمين ويستحسن أن يضاف إلى غذائه بصورة تدريجية أنواع أخرى من الطعام ، مثل عصير الفاكهة وعسل أبيض وشوربة خضار مهروسة ، ويبدأ ذلك بالملعقة . وعند بدء ظهور الأسنان يبدأ بإعطائه تدريجيًّا الغذاء اللين ثم الصلب فيما بعد وبذلك يمكن تحقيق فطام الطفل تدريجيًّا دون أن يشعر بألم من ذلك .

التأخر عن ميعاد الرضعة

من المواقف الهامة التى تؤثر على صحة الطفل النفسية والتى يمتد أثرها فيما بعد ، ويبقى مع الإنسان مدى الحياة مواقف تأخر الأم عن ميعاد

الرضعة التى ينقل الطفل إلى الشعور بألم الجوع . والجوع هو الشعور المؤلم الذى ينتج عن عدم إشباع حاجة غريزية لا يستطيع الطفل تأجيلها ، ولا يقوى على احتمال آلامها ، فنراه فجأة قد انزعج انزعاجاً شديداً كما لو كان مشرفاً على الهلاك ، لأن تأجيل حاجة غريزته أو إهمالها يعد من وجهة نظره تهديداً لحياته . إن الحاجات الغريزية للطفل تتطلب الإشباع المطلق العاجل وبمجرد إشباعه نراه يفيض شعوراً بالارتياح واللذة ، ومن هنا كان شعوره بالرضا والاستقرار الذاتى والثقة بالنفس ، وكل هذه العوامل الخفية وراء نجاح الفرد فى حياته وبلوغه آماله تنمو عنده أول ما تنمو فى الفترة المبكرة من طفولته ويوضع لها الأساس منذ اللحظة الأولى التى يخرج فيها الطفل إلى هذا العالم الخارجى .

على أن هذا الفهم لحاجات الطفل الغريزية وأهمية تلبية هذه الحاجات فى السنوات الأولى لا يعنى ترك الطفل يعيش حياته على مستوى مبدأ اللذة ، فإن كثيراً من هذه الحاجات والرغبات يتعارض مع الأوضاع والقيود الاجتماعية فيما بعد . ولا بد للطفل أن يتعلم تدريجياً كيف يحد منها بالتنازل أو بالتأجيل أو بالتعديل كى يعيش وفقاً لمبدأ الواقع هذه القيود التى تتعارض مع رغبات الطفل وسلوكه لازمة لتنظيمه هى الدعائم الأساسية فى عملية التربية ، ولكن نجاحها دون أن تنال من صحته النفسية يتوقف إلى حد كبير على حسن تطبيقها من حيث اختيار الوقت المناسب والظروف الملائمة

الأسنان

تظهر بعض صعوبات التغذية عند بدء ظهور الأسنان فالطفل يعانى عادة من الآم جسمية ويصاحب ذلك إحساسه بالخوف والغضب ، ويظهر ذلك فى نوبات الصراخ والبكاء واضطراب النوم وكذلك صعوبات التغذية ، وبذلك يصاحب عملية التغذية الإحساس بالغضب فتصبح عملية خطيرة ولاسيما فى حضور الوالدين اللذين يشعر الطفل تجاههما بعدم الرضا

المرض الجسمى

إن إصابة الطفل بأى مرض جسمى يسبب له اضطراباً فى عادات التغذية ، وذلك بسبب اهتمام المحيطين به الزائد الذى يظهر بعد شفائه من المرض من ناحية تغذيته مما يسبب له زيادة فى الاضطراب

الفطام

ينبغى أن يكون تدريجيًا ، ففقد الطفل قربه وملامسته لثدى أمه اللذين يتوفران له فى الرضاعة الطبيعية يسبب له قدراً كبيراً من القلق النفسى ، وينتابه الشعور بالحرمان أما إذا كان الفطام تدريجيًا فسوف لا يشعر بهذا الإحساس من الحرمان

وكذلك من الخطا استخدام الرضاعة الطبيعية لفترة طويلة ، حيث إن هذا يؤدى إلى زيادة اعتماد الطفل على أمه وكذلك تكون له أسوأ الأثر

على صحته بصفة عامة إذ أن بعض أمهات الطبقة العاملة يفضلن ذلك لأسباب اقتصادية من ناحية وعاطفية من ناحية أخرى ، إلا أن هذا يحرم الطفل من النمو الطبيعى

وكذلك من الخطأ حرمان الطفل من الرضاعة الطبيعية فى وقت مبكر وإطعام الطفل بالملعقة إذ أنه من المستحسن أن يتم ذلك فى البداية والطفل على حجر أمه ثم يسمح له فيما بعد أن يأكل وهو جالس على الكرسى الصغير الخاص به على مائدة الأسرة ، مع ملاحظته ما أمكن ذلك ، فإذا لم يأكل جميع ما يوضع له من الطعام ينوه له بملاحظة بسيطة عن ذلك وينبغى أن نعلم جيداً أن الطفل سوف لا يصاب بأى سوء إذا لم يأكل لمدة يوم أو اثنين ، وعلى الآباء ألا يصيبهم الخوف إذا رفض الطفل وجبة كاملة وإذا كانت صحة الطفل جيدة فشعوره بالجوع الطبيعى سوف يتغلب على أى مشاعر أخرى أما إذا استخدم الضغط فى تغذيته فسوف يعانى الطفل سوء الهضم ، حيث إن الطعام لم يهضم جيداً والقاعدة الذهبية بخصوص تغذية الطفل هى الاحتفاظ بالهدوء وعدم الاهتمام ، وندع الوجبات تستمر فى وقتها الروتينى الطبيعى دون إظهار أى اهتمام لا داعى له

الحالة النفسية للأم

حيث إن الطفل يفهم عن طريق الإحساس ، ومن ثم كان من الضرورى أن تراعى الأم حالتها النفسية ، فإن اضطرابها ينقل إلى الطفل ويحسه دون شعور منها وقد يتأثر لبنها ، فيقل ، وأحياناً يختفى كلية ،

فيحرم الطفل من الغذاء الرئيسى والمفضل ، ومن اللذة التى يستمتع بها خلال الرضاعة ، ومن الطمأنينة التى هى عماد حيويته فى هذه الفترة ، ولذا فإن الأم الحكيمة تضع مطالب طفلها فى المرتبة الأولى من الأهمية ولا تسمح لأى شيء أن ينتقص من راحتها النفسية ، وينبغى أن تقوم على رعاية حاجات طفلها بنفسها ، فليس من مصلحة الطفل ولا من مصلحتها أن تعتنى بها أياد متعددة .

٢ – ضبط وظائف الإخراج

ربما معظم الخلافات الأسرية التى تتصل بعملية تعلم الطفل يكون سببها مشكلة ضبط وظائف الإخراج . فهناك اختلاف فى وقت وكيفية ضبط وظائف الإخراج . وقد تحصل الأمهات الصغيرات على نصائح متعارضة فى هذه الناحية وقد كانت أهمية التزام الطفل بضبط وظائف الإخراج فى مرحلة مبكرة موضع اهتمام كبير فالأطفال الذين يكتسبون القدرة على ضبط وظائف الإخراج فى وقت مبكر نتيجة التدريب الدقيق يتعرضون إلى نكسة العودة إلى فقد القدرة على الضبط فيما بعد والسن الطبيعية التى يتمكن فيها الطفل من ضبط الأمعاء هو ١٢ شهراً والمثانة بعد أن يبلغ السنتين من العمر ومع ذلك فهناك بعض الاختلافات الفردية التى يمكن أن تحدث ، وتتوقف إلى حد كبير على الصحة الجسمية للطفل ، وكذلك توقع حدوث العودة إلى عدم ضبط وظائف الإخراج حين يكون مريضاً أو خائفاً أو مضطرباً لأى حادث ما

ينبغى ألا يبدأ التدريب فى وقت مبكر ، والأفضل الانتظار حتى يصل

الطفل إلى مرحلة تتوفر فيها الشروط الثلاثة الآتية

أولاً ينبغى أن يكون الطفل قادراً على الجلوس على الإناء الخاص بدون أى مجهود ، ويكون قد اكتسب قدرة التحكم الفعلى الكافى اللازم لذلك ، ويكون ذلك بعد الستة الشهور الأولى .

ثانياً ينبغى أن يكون الطفل قادراً على التعبير عن حاجته بطريقة معينة ، وأن يفهم ما يطلب منه ، وبذلك يستطيع أن يتجاوب بذكاء ، وليس فقط بطريقة آلية وغير مفهومة

ثالثاً : والأكثر أهمية مما سبق ، ينبغى أن يكون قادراً على تكوين علاقة ثابتة مع من تقوم برعايته ويشعر نحوها بالاطمئنان حتى يكون مشوقاً للتعاون من أجلها وكسب رضاها . وفى أغلب الأحيان ، هذه المرحلة لا يمكن الوصول إليها إلا بعد أن يبلغ سنة تقريباً من عمره ، وبذلك حين تتوفر هذه الشروط جميعها ، وبعد أن يكون الفطام قد تم الوصول إلى تحقيقه بسلام ، سوف لا يكون هناك أى صعوبة فى مساعدة الطفل على كسب عملية ضبط وظائف الإخراج ، وسوف يشعر الطفل بالفخر حين يكتسب هذه القدرة مثل اكتساب أى قدرة أخرى .

ينبغى أن نشجع الطفل بالمديح لأى محاولة ناجحة مع عدم إظهار المبالغة فى الاشمئزاز والخجل فى حالات الفشل ، بل الإشارة فقط إلى مظهرها غير اللائق . وينبغى أن يشعر الطفل بمحاولات أو مساعدات على التحكم حتى يصل إلى تحقيق ذلك .

وقد تبين عند علاج كثير من حالات عدم التحكم فى ضبط وظائف الإخراج الذى يظهر فيما بعد ، يمكن أن يكون التعبير عن إحساسه بالغضب

نحو والديه أو أحد أعراض حاجته ليبقى معتمداً عليهم وكثيراً ما يفقد الطفل هذا التحكم حين يتعرض إلى أى ضغوط نفسية مهما كانت سن هذا الطفل ، وإنى أعتقد أنه من الخطأ اعتبار عملية التدريب على ضبط وظائف الإخراج نوعاً من الانعكاس المشروط لا يتأثر بأى عوامل نفسية

وعلاقة الطفل بأمه فى هذه الناحية لها أهمية كبيرة فتشجيع الطفل سوف يساعده إلى حد كبير ، وكذلك ينبغى ألا تكون المستويات التى تتوقع من الطفل فوق قدرته أو فى وقت مبكر من عمره

عادات النوم

الصعوبات التى تتعلق بالنوم أكثر شيوعاً فى السنة الثانية والثالثة عن السنة الأولى ، وفى أغلب الأحيان تكون هذه الصعوبات نتيجة ظروف النوم أثناء السنة الأولى ، وعادات النوم التى اكتسبها الطفل فى هذه الفترة .

ينبغى أن تشجع عادات الاستقلال فى النوم فى فترة مبكرة ما أمكن ذلك – فمن الأفضل إعداد غرفة خاصة بالطفل أو مع طفل آخر أو مع مربيته بعد مرور الأسابيع الأولى ، وتكون الأم تحت الطلب ، فإذا استيقظ الطفل أثناء الليل بعد آخر رضعة ينبغى على الأم أن تلبى نداءه فتحاول أن ترضعه وتخفف عنه وتمنحه الحب والحنان حتى يشعر بالراحة والاطمئنان ، ولا تتركه لنفسه يصرخ حتى ينام وفى أغلب الأحيان حين يترك الطفل على السرير ليلا فإنه يرفض مستيقظاً التكلم ويغنى لنفسه لفترة قصيرة ثم يستغرق بعد ذلك فى النوم ، وأحياناً يبكى لفترة قصيرة إذا ترك ، ولكن

هذا البكاء لا يستمر طويلا ، ويستحسن أن ينظم وقت نوم واستيقاظ الطفل ، لأن ذلك يساعده على اكتساب عادات النوم الصحيحة ، وكذلك لا ينبغى إيقاظ الطفل بصورة مفاجئة ليلا بالأصوات المزعجة والاضطرابات المختلفة

وقد تبين أن الطفل تظهر عليه أعراض القلق النفسى إذا سمح له بالنوم فى نفس غرفة والديه أثناء ممارستهم اللقاء الجنسى ، إذ أنه بطريقة غريزية يبدو أن الطفل يكون مدركاً لنشاط والديه مع إحساسه ببعده عنهم ، فينتابه الشعور بالغضب والخوف لتجاهله وقلة حيلته وبذلك تبدأ ظهور أعراض التبول اللاإرادى أو نوبات الصراخ من تاريخ مشاهدته هذا الوضع ، أما إذا كان الطفل مريضاً أو فى حالة غير طبيعية بسبب التسنين ، فمن الحكمة أن تذهب الأم وتنام فى نفس غرفة طفلها لفترة قصيرة وبعد أن تستعيد حالته الطبيعية تبدأ فى مساعدته على اكتساب عادة النوم بدونها تدريجياً

٤ - نوبات البكاء والصراخ

يعتبر بكاء الطفل طريقة اتصاله بمن حوله ، فهو يحتاج إلى الطعام والمصاحبة والرعاية ويطلبهم بوسيلته الوحيدة التى يعرفها فإذا لم يمنح ما يشبعه منهم فسوف يلجأ إلى البكاء الكثير أما إذا منح ما يحتاج إليه منهم فسوف لا يبكى إلا فى حالات نادرة وملحة والطفل الطبيعى قليل البكاء ولذلك فمن الأهمية بمكان أن نلبى حاجات الطفل الأساسية الحيوية ، ولكن ليس من الصواب أن يسرع إليه فى كل مرة يبكى فيها

فأحياناً يستخدم البكاء كطريقة يحمل بها الكبار على تحقيق رغباته ، ولكن ينبغي أن نجعله يتعلم الانتظار القليل ، وتحمل الحرمان البسيط فى فترة مبكرة ما أمكن ذلك

ولكن إذا كان بكاؤه نتيجة للخوف أو الغضب ، فمن الأصوب ألا يترك يصرخ وحيداً إذ أن هذه الطريقة ترهقه ، فهو يحتاج إلى الراحة والاطمئنان اللذين يمكن أن يمنحهما من الكبار المعروفين لديه ويبدو هذا واضحاً وخاصة حين يستيقظ ليلا من صوت ما أولسبب بعض آلام بأسنانه أو من حلم مزعج فخيالاته الخاصة بمهاجمة والديه تكون فى أعلى وأوضح صورها فى ذهنه ، فإذا منح الاطمئنان والهدوء مباشرة من أمه التى تحبه فسوف يزول خوفه وتتلاشى خيالاته

ويحتاج الطفل فى السنة الأولى من عمره إلى الشعور بالاطمئنان والراحة النفسية ، وكلما كان المنزل الذى يعيش فيه مضطرباً مزعجاً وغير مستقر زادت حاجته الملحة إلى هذا الشعور بالاطمئنان ، فيلجأ إلى الصراخ ، وهو أحد الوسائل التى يعبر بها عن قلقه النفسى ومع ذلك فصياح الطفل وصراخه يقل تدريجياً كلما تقدم فى العمر ويبدأ فى معرفته للعالم الخارجى ، فيدرك الصداقة الحقيقية منه ويكسب الرضا ممن يحيطون به

مص الإصبع

هذه العادة لا يسمح بها إذا نظر إليها من الناحية الصحية ، ولكن يسمح بها من الناحية النفسية إذا كان يبدو على الطفل أمراض الاضطراب

النفسى ، فإذا حرم من ممارستها التى تعتبر مصدر إشباع له ، وكذلك تعتبر بديلا من ثدى أمه فسوف تحدث اضطراباً أكثر شدة أما إذا كان الطفل يتمتع بحالة صحية جيدة ومعتنى به ويشعر بالرضا والسعادة ، فسوف لا يحتاج إلى ما يساعده على الراحة ، ويمكن أن يساعد على التخلص منها بأن يمد بوسائل أخرى بديلة تسترعى انتباهه مع منحه الغذاء المناسب من الحب والعطف اللازمين . ومن الأصوب أن يرفع بلطف الأصبع من فمه أثناء نومه حتى لا يصبح عادة لديه . ولا تعتبر هذه المشكلة ذات أهمية فى مرحلة الرضاعة ، ولكن تعتبر علامة توتر نفسى إذا استمرت مدة أطول من مرحلة الطفولة

مما سبق يمكننا أن ندرك أهمية الحياة الانفعالية والذهنية للطفل ، فحياة الطفل فى جميع زواياها العقلية والنفسية والجسمية متساوية فى الأهمية ، ويحتاج إلى العناية والرعاية والاهتمام من البداية . فإذا وفّت كل أم بما تقتضيه منها تنشئة الصغير على أساس الرغبة الصادقة فى الأمومة والرعاية الراشدة لحاجات الطفولة لتبدى لنا شعاع من الأمل بأن عالم الغد قد يكون خيراً من عالم اليوم

كيف تساهم المدرسة فى تحقيق الصحة النفسية لتلاميذها

إن موضوع الصحة النفسية والمدرسة غامر شامل متشعب مسرف فى التشعب ، وحسبي أن أقتصر فى كتابتى على بعض النقاط التى تلتقى عندها أهداف المدرسة كمؤسسة تربوية اجتماعية ، وأهداف الصحة النفسية كوسيلة لتحقيق الكفاية والهناءة للفرد والمجتمع معاً ، ومعاونته على أن يعيش حياته يأخذ من الحياة خير ما فيها ويعطيها خير ما عنده ويهنأ بالأخذ كما يهنأ بالعطاء ، ويلتقى رجال الصحة النفسية مع رجال التربية عند هدف موحد أن نؤمن ثم نعمل لهذا الإيمان بأن الإنسان السعيد هو الإنسان الطيب من يملك القدرة على أن يعمل برضا فى غير ضجر ، وعلى أن يحكم بإنصاف وعلى أن يسهم ولو بأقل الجهد فى سبيل الخير العام وإذا صدق هذا الهدف ، فإنه لأكثر صدقاً وأدق انطباقاً على الفرد فى المراحل التكوينية للحياة أثناء الطفولة المبكرة وفى الفترة السابقة للمدرسة ثم خلال مرحلة الدراسة على حد سواء ولذلك كان من المحتم كى تكفل الرعاية الصحية النفسية للتلاميذ ، لا ما يلبى حاجة العلاج النفسى إذا وقع فحسب ، بل ما يحقق أصول الوقاية من الاضطراب قبل ذلك ولنحاول أن نرى ما هو دور المدرسة والمعلم فى تحقيق الصحة النفسية للطلبة ووقايتهم من الاضطراب النفسى

وبعد انقضاء سن الطفولة الأولى تبدأ المدرسة تسهم مع البيت فى مهمة مساعدة الأطفال على النمو الذهنى والانفعالى والاجتماعى وتزداد أهمية الدور الذى تقوم به المدرسة فى نمو شخصيته بازدياد تحرره من البيت

إن أسس الصحة النفسية تبدأ فى البيت خلال السنوات التكوينية الأولى لحياة الطفل مع أسرته ، ولكن المدرسة تظل رغم ذلك ذات أثر تكوينى فى حياة الطفل وشخصيته ، لا يكاد يقل عن أثر البيب ذلك أن المفهوم الحديث للمدرسة لا يقتصر على مجرد كونها مكاناً يتزود الطفل فيه بالمعرفة وحسب ، بل مجالا تتفتح فيه شخصية الصغير وترقى وتنبه فى جوه خير إمكانياته وتنمى فاعليته مع المجتمع فإذا وفقت المدرسة فى تحقيق رسالتها على هذا النحو فقد وفقت فى أن تكفل لابنائها خير الأجواء ملاءمة لصحة نفوسهم

وليست المدرسة التى تستطيع تحقيق هذا الهدف مجموعة من التلاميذ فى بناء يحتويهم جماعات ، وفناء يتيح لهم قدراً من الحركة والنشاط فحسب ، ولكنها أولا وقبل كل شىء ألوان من العلاقات الحية المتشابكة تشترك فيها بكيانها المادى وجوها المعنوى ، وأعضاء الهيئة التربوية والصحية وتلاميذها معاً ومستهدفة آخر الأمر تنشئة جيل سليم صحيح النفس تعلم أفراده كيف يحبون ، وكيف يعملون للنجاح ، وكيف يقابلون الفشل ، وكيف يحاولون التوافق من جديد وكيف ينزلون عن بعض الرغبات إذا لزم الأمر ، وكيف يقبلون على الحياة بأمل وحماس ، وبالإيحاء كيف

يحققون النضج الانفعالى الذى هو حقيقة نواة الصحة النفسية ، فالنضج الانفعالى هو العلامة المميزة للمواطن الصالح .

الرعاية الطبية أولا

أثناء سنى الحضانة لا يحتاج الطفل إلى تعلم منتظم بقدر حاجاته إلى بيئة مناسبة لتنبيه قدراته الذهنية ومعاونته على النضج الانفعالى والاجتماعى معاً ، وخير ما يساعد فى تحقيق ذلك توافر إمكانيات اللعب ، فإن اللعب فى هذه السن هو الوسيلة الطبيعية لإشباع حاجة الطفل إلى التعبير عن الذات وإلى التقريب ما بين خياله وواقعه .

ويتسع المجال بصدد حاجات الطفل واهتماماته اتساعاً كبيراً أثناء مرحلة الدراسة الابتدائية ، وتشمل هذه الحاجات فيما تشمل الحب والقبول والمكانة واحترام الذات والتعبير عن الذات فى علاقتها بالغير ، وترتبط هذه الفكرة على نحو وثيق باتجاهات الغير من الطفل ، وعلى الأخص اتجاهات الوالدين والمدرسين سواء كانت شعورية أو لا شعورية .

فى وسع المدرسة أن تسهم على نحو عظيم القيمة فى دعم الصحة النفسية لتلاميذها عن طريق

* خدمات صحية محكمة لا تترك طفلاً فى حاجة إلى رعاية طبية أو صحية إلا قدمتها له على نحو كامل عاجل . فإن توفير الصحة للتلميذ فى هذه السن دعم لشعوره بالثقة بالنفس والاطمئنان إلى العالم الذى حوله . ودفع له على الإقبال على الحياة والتعاون والمشاركة فيها .

• منهج دراسى مرن يتيح للنشاط الذهنى قدراً كبيراً من الحرية ، ويعطى فرصة للاختيار فى مجال أوسع ، إن عدداً كبيراً من حالات التأخر فى التحصيل الدراسى ، وما يصحبه من فشل أو شقاء وعزوف عن المعرفة وانسحاب من الحياة عموماً ، كان مبعثها منهجاً دراسياً ، أو مدرسياً ، أثار فى نفس الصغير الشعور بالصد والكراهية والضجر .

• الفرص المتعددة التى تتيحها المدرسة لمعاونة تلاميذها على النمو الاجتماعى وعلى إشباع حاجتهم إلى المساهمة مع الغير وإلى تكوين علاقات خارج دائرة الأسرة

• أوجه النشاط المدرسى المختلفة التى تعين على حفظ التوازن بين مختلف القيم والمستويات بما تؤكده من فرص لتلبية حاجة الطفل إلى المكانة والقبول والابتداع ، والتعبير عن الذات وتنمية المهارات الاجتماعية التى تنطوى على التعاون والاعتماد على النفس والعمل مع الجماعة وتكوين صداقات ، مما ينعكس آخر الأمر على شخصية التلميذ وصحته البدنية والنفسية معاً .

المعلم أب وصديق

المدرس أو المعلم ، ما من حاجة إلى تأكيد أنه أهم شخصية فى حياة التلميذ بعد والديه ، ولذا ينبغى أن يعد بحيث يستطيع النهوض بدوره التربوى على خير نحو ، لأنه يترك فى نفوس تلاميذه أثراً يبلغ المدى الذى يمكن معه أن يقال إنه لا يمكن أن يكون سلبياً فقط ، حتى لو ظل فى بعض المواقف ساكناً لا يقوم فى الظاهر بعمل شىء ، فإنه من الوجهة السيكولوجية فى الواقع يكون قد فعل شيئاً ، إن المعلم سلطة قوية الأثر فى نفوس التلاميذ ،

وهذه السلطة مستمدة من الأدوار المتعددة التى بوسعه القيام بها ، فهو أولاً وقبل كل شيء يقوم بدور الأب ، ثم هو بدور المشرف ، ودور الخبير ، ودور العالم ، ودور الصديق والموجه والمعالج ، وتختلف أهمية الدور الذى يقوم به المدرس فى نفوس تلاميذه وفقاً لشخصيته من ناحية ولسن التلاميذ الذين يشرف عليهم من ناحية أخرى

ولكن إذا كان المعلم بالنسبة لتلاميذه سلطة ، فما ينبغى أن تعتمد هذه السلطة على القوة أساساً فى ضبط الصغار وتوجيههم وإنما ينبغى أن تعتمد أصلاً على مهارة المعلم فى إقامة علاقة طيبة مثمرة لدى تلاميذه وعلى استخدام هذه العلاقة فى تنظيم المناهج واستقطار الخير فيها والوصول بالعملية التربوية إلى تحقيق خير أهدافها

والمعلم كى يستطيع تحقيق ذلك ينبغى أن يكون هو نفسه متزناً خالياً من عوامل القلق وعدم الطمأنينة ، مؤمناً برسالته معطياً إياها من ذات نفسه . وقد يقتضى ذلك مراجعة مناهج الإعداد للمعلمين على نحو يكفل لهذه المناهج أن تصبح عنصراً فعالا فى معاونة المعلم على فهم دوافع السلوك ومشكلاته ، وعلى معالجة الانحرافات الصغيرة وهى فى مستهلها ، فإن الغالبية الكبرى من مشكلات هذه المرحلة يمكن أن تخضع للتوجيه المستمر ، وليس أقدر من المعلم الذى أحسن إعداده على القيام بهذا التوجيه فيما سيترتب عليه من نتائج

النضج الانفعالى

وأياً كان الدور الذى يقوم المدرس به فإن مهمته الأولى معاونة التلميذ

على تحقيق النضج الانفعالى إلى أكبر قدر مستطاع والنضج الانفعالى كما وضحنا يتضمن التركيز من الذات خارجها ونقل النشاط من الاعتماد إلى الاستقلال كما يتضمن إدراكاً مطرد النمو من الطفل لما نطلق عليه اسم « عالم الواقع » وتقارباً بين فكرته عن نفسه وعن مثله العليا ، بين ما يستطيع أن يحققه مثلا وما يعتقد أنه ينبغى أن يحققه ، فإن هذا خليق بأن يخفف من شعوره بالذات إذا لم تساعده قدرته على تحقيق ما يحسب أنه ينبغى عليه

وإذا كان النضج الانفعالى من العوامل الأساسية للنجاح فى الحياة بوجه عام وكانت وظيفة المدرسة إعداد تلاميذها لهذا النجاح ، كانت مهمتها – أى مهمة المدرسة فى تحقيق هذا النضج – فى مقدمة المهام التى ينبغى أن تعنى عملية التربية بها اليوم ، فإنه بغير النضج الانفعالى لا يستطيع الإنسان تناول مشكلات الحياة تناولا متزناً

إن الفصول والأفنية وقاعات النشاط على اختلاف صورها والملاعب والمرافق ، كل هذا يسهم بدوره فى توفير الصحة للتلاميذ بوجه عام والصحة النفسية على وجه الخصوص ، فمما لا شك فيه أن المكان إما أن ينبه المشاعر المحببة أو المشاعر المنفرة لدى التلاميذ ، أو يدعم شعورهم بالطمأنينة فى علاقاتهم به أو يثير فى شعورهم القلق والتوتر ، وإما أن يؤدى آخر الأمر إلى الإقبال على التعلم أو إلى الإحجام عنه

مما سبق نرى أن مهمة المدرسة فى دعم الصحة النفسية هى إعداد تلاميذ اليوم لتحمل مشقات التغير مستقبلا لا دون أن تثقل عليهم وطأة المرض أو يقعدهم الانهيار وحسب ، بل ومع القدرة أيضاً على تمثيل القيم

الاجتماعية المتغيرة وعلى المساهمة فيها كمواطنين لخيرهم وخير أوطانهم وخير الإنسانية جميعاً على حد سواء وكذلك إذا فهمت المدرسة رسالتها فهماً واضحاً وإذاأدرك من فيها حقيقة الصلة بين المدرسة والمنزل من ناحية ، وبينها وبين المجتمع الأكبر من ناحية أخرى ، فإنه يمكن أن يهيأ جوها بحيث ينال التلاميذ مراناً كاملا على الصفات الخلقية التى يحتاج إليها المجتمع والتى يشكو عادة من أنها تنقصه

متى تعرض طفلك على طبيب نفسى ؟

من المعالم البارزة للمجتمع الحديث انتشار الأمراض النفسية بين جمهور الناس بوجه عام ، وقد ظهرت وانتشرت فى مرحلة كانت إلى عهد قريب تكاد تكون خالية من أى مظهر واضح للاضطراب النفسى فى مرحلة الطفولة

وإذا لم يكن بد مما تتسع له هذه المقدمة أن أذكر الأسباب التى أدت إلى ظهور الاضطرابات النفسية فى هذه السن الغضة فيكفينى أن أشير إلى أن ما أصاب أسلوب الحياة من تغيرات كبيرة سريعة فى السنوات الأخيرة قد انعكس أثره على جو العلاقات داخل الأسرة وإن الأساس فى معظم الاضطرابات النفسية التى تصيب الأطفال هو شعورهم بعدم الطمأنينة ، ثم الأسلوب الذى يحاولون بواسطته التخفف من هذا الشعور ، ومن الواضح أن شعور الأطفال بعدم الطمأنينة يرجع إلى خطأ ما فى العلاقة بين أفراد الأسرة أو إلى الطريقة التى تتبع فى تنشئة الصغار

وفى وقت ما رأى بعض المعنيين بهذه المشكلة أن علاجها يستند إلى المبدأ الذى يقول « بأنه لا يوجد أطفال غير مستقرين ، وأن المشكلة إنما تكمن فى الوالدين لا غير » ولكن هذا غير صحيح على الإطلاق . صحيح إن المشكلة قد تكمن أساساً فى الوالدين وتصبح المشكلة فى الحالات النفسية البحتة يتردد صداها فى الطفل ، ولكنها فى حالة الأطفال المعوقين جسمياً وذهنياً ، تكمن أيضاً فى الآثار السلوكية والتحصيلية المترتبة على هذا التعويق

علم جديد

بناء على هذا كله فقد تبين أنه لا يمكن فهم الحالة النفسية للطفل إلا إذا فهمت الجوانب الجسمية والنفسية والذهنية والاجتماعية معاً وكان من نتيجة ذلك أن ظهر علم جديد ، أو بتعبير أدق تخصص جديد ، هو الطب النفسى للأطفال الذى جعل هدفه كغيره من فروع الطب الأخرى كما يلى

١ – اكتشاف وعلاج الأمراض النفسية للأطفال فى مرحلة مبكرة ما أمكن ذلك ، وفى هذا فضلا عن العلاج فى مرحلة الطفولة ، وقاية من المرض فى المراحل اللاحقة

٢ – التوجيه الفردى أو الجماعى إلى أساليب التنشئة السليمة ، وذلك لتجنب إصابة الطفل بالاضطراب النفسى بقدر الإمكان وبذلك فإنه من الأمور الهامة أن يعرف الناس أن إصابة الطفل ببعض الاضطرابات النفسية فى مرحلة الطفولة المبكرة فى حياته تؤثر تأثيراً شديداً فى نمو شخصيته

فيما بعد ويصبح الاتجاه المنحرف هو الوضع السائد لسلوكه المضطرب

ومن الملاحظ أنه على الرغم من عرض الكثير من الأطفال للعلاج وهم فى الخامسة أو الرابعة من العمر ، إلا أن مشكلاتهم كانت قائمة منذ فترة طويلة قبل ذلك ، ولذلك فالتبكير فى عرض الطفل على الطبيب النفسى للعلاج يجنب الكثير من مضاعفات التأخير فى العلاج

مشكلات خاصة بالأطفال

ويقوم الطب النفسى للأطفال على نفس الأسس التى يقوم عليها الطب النفسى العام ، يختلف فقط فى وجود بعض مشكلات خاصة تتعلق بمرحلة نمو الأطفال

١ – مشكلة وسيلة التعبير بالمقارنة مع الراشدين لا يستطيع الأطفال التعبير عما يفكرون فيه أو يشعرون به وقت غضبهم ، ولذلك فجميع مشكلاتهم حادة لعدم قدرتهم على التعبير عنها كالسرقة ، والغضب ، وبعض حالات المغص مثلا جميعها علامات تدل عل عدم شعور الطفل بالرضا وعدم قدرته على التعبير عن ذلك بكلمات

٢ – مشكلة تعدد الأسباب ينبغى البحث فى الطب النفسى للأطفال عن عوامل متعددة تسبب حدوث أعراض مرض نفسى معين بخلاف ما اعتاد عليه الأطباء بصفة عامة فى البحث عن عامل واحد فقط تسبب فى ظهور المرض

٣ – استمرار النمو إن الأطفال فى حالة نمو مستمر جسمياً وعقلياً وانفعالياً ، ولذلك لا توجد حالة ثابتة فى حياة الطفل ومقاييسه ، فاتجاهاته

فى حالة تغيير مستمر ، إذ أنه فى حالة نمو مطرد جسمياً وذهنياً – وتختلف استجابات الأطفال للاضطراب النفسى الواحد بحسب العمر فطفل الثالثة القلق يظهر قلقه فى استمرار صراخه وهز رأسه ، فى حين أن طفل السادسة يظهر قلقه فى مظاهر الخوف المرضى أو السرقة ، ويضاف إلى ذلك أن ظهور الاضطرابات فى جانب من النمو مثلا فى النمو الانفعالى أو الجسمى ، سوف يعوق نمو الجوانب الأخرى . فمثلا انفصال الطفل عن أمه فى الشهور الأولى مع عدم توفير بديل للأم مناسب له يؤدى إلى تأخره فى النمو الجسمى عامة ، وكذلك يعوق نموه من الناحية الانفعالية

ولذلك يصبح من أهم الأمور اكتشاف الأمراض النفسية للأطفال فى وقت مبكر ما أمكن ذلك وعلاجها بمجرد اكتشافها مباشرة

وعلى الرغم من أن الاضطرابات النفسية يتوقع حدوثها بين الأطفال ، إلا أن الآباء فى أغلب الأحيان لا يدركون إلى أى حد يمكن اعتبار سلوك الطفل سلوكاً طبيعياً ، ومتى تبدأ الحاجة إلى مساعدته والإسراع فى علاجه من الناحية الطبية النفسية وفى كثير من الحالات يحتاج الآباء إلى التبصير عما إذا كان الطفل يحتاج فعلا إلى العلاج عند ظهور الاضطراب الانفعالى أو السلوكى

ظواهر يجب الالتفات إليها

الطفل الذى تظهر عليه بعض أعراض غير مألوفة مثل الميل فجأة إلى الانطواء أو الخوف الذى لا مبرر له من بعض الأشياء اليومية العادية لا يصح أن يعد على الفور مريضاً لأن هذه الاستجابات قد تكون عابرة ،

ولكن يمكن اعتبار هذه الاستجابات مرضية إذا حدثت بصورة متكررة أو إذا استمرت لفترة طويلة . فإنها فى هذه الحالة تقتضى من الآباء الملاحظة الدقيقة الجادة والبحث عن مصادر القلق والخوف المتعمقة جذورها فى الداخل . وفى هذا الوقت ينبغى أن يعرض الطفل على طبيب نفسى للاستشارة والمساعدة فى العلاج

والعلامات المميزة التى تدعو إلى ذلك فى مختلف الأعمار هى

١ – من الولادة حتى الثانية من العمر صعوبات هذه الفترة تظهر فى بطء النمو الجسمى ، السلبية الزائدة ، ضعف الاستجابة للمؤثرات الخارجية أو الاستمرار فى شدة صعوبات النوم وتناول الطعام .

٢ – من الثانية إلى الرابعة من العمر إذا استمر إصرار الطفل على رفض الطعام وعدم ضبط وظائف الإخراج أو أظهر عدم رغبته فى الاختلاط بالأطفال الآخرين أو رفض الاستجابة إلى أى محاولة للحد من سلوكه فى هذا الوقت يحتاج إلى المساعدة الطبية النفسية

٣ – من الرابعة إلى السادسة من العمر فى هذه السن ينبغى أن يكون الطفل قد اندمج فى المجتمع المحيط به ، فإذا لم يحدث ذلك وظهرت عدم قدرته على الاندماج مع الأطفال الآخرين ، إما بالاستمرار فى عدم التوافق معهم بالعراك المستمر أو انطوائه على نفسه بعيداً عنهم ، فإن ذلك يدعو إلى اعتبار أن هناك مشكلة تقتضى الدراسة والعلاج وكذلك مما يدعو إلى الاهتمام الاستمرار فى ابتلال الفراش ، أو صعوبة النطق ، مع تكرار نوبات الغضب الحادة ، أو الاستمرار فى الرغبة فى التخريب أو فى التكرار المتعمد فى القسوة على الحيوانات ، جميعها علامات منذرة باضطراب

نفسى يحتاج إلى المساعدة الطبية النفسية .

٤ – من السادسة إلى الثامنة من العمر فى هذه السن يكون الطفل قد بدأ حياته المدرسية ، وتظهر بعض المشاكل الصغيرة للتكيف مع المجتمع المدرسى الجديد . فإذا أظهر خوفاً حقيقياً من المدرسة ورفض الذهاب إليها ، فإن ذلك قد يكون علامة خطيرة لاضطراب التكيف الداخلى كذلك مما يدعو الآباء إلى الاهتمام فى هذه المرحلة استمرار ابتلال الفراش ومص الأصبع أو الخوف من الإصابة بالمرض .

٥ – من الثامنة إلى الحادية عشرة يميل الطفل فى هذه المرحلة إلى الحركة والنشاط والأعمال اليدوية ، فإذا استمر ميل الطفل إلى الانطواء أو الرقاد لفترة طويلة أو الاستغراق فى أحلام اليقظة مع عدم ميل إلى المشاركة فى أى نشاط حركى أو يدوى ، أو الميل إلى إشعال النار أو اللعب بالكبريت ، أو إذا استمرت نوبات الذعر الشديدة المتكررة فى ظروف معينة ، مع دوام الشعور العدائى ضد الوالدين ، فإن هذه جميعها من علامات الاضطراب النفسى وتحتاج إلى المساعدة الطبية النفسية والعلاج

ومع ذلك ينبغى أن يفهم الوالدان أن ظهور هذه الأغراض سواء جميعها أو بعضها لا ينبغى أن تكون أعراضاً لمتاعب خطيرة ، فربما مثلا قد يكون الباعث إلى انطواء الطفل موت أصدقائه المقربين أو أقاربه ، أو قد يكون عدم رغبته فى الذهاب إلى المدرسة ناتجاً من صراع داخلى مع أحد مدرسيه . فى كل هذه الأمثلة هناك عامل داخلى يحتاج من الطفل إلى أن يلجأ إلى تكيف جديد فإذا أمكن التخلص من هذه الأسباب التى تهز كيانه النفسى سيعود الطفل إلى السلوك الطبيعى وتصبح المشكلة وقتية

أما إذا استمر الاضطراب ظاهراً فى سلوك الطفل على الرغم من عدم وجود سبب واضح ولفترة طويلة ، أو حتى بعد زوال السبب الخارجى الذى أدى إلى ظهوره : فى ذلك الوقت فقط ينبغى أن تؤخذ الأمور بصفة جادة وتعرض حالة الطفل للمشورة الطبية النفسية وبدون تأخير

الاضطرابات النفسية والأمراض الجسمية

من أهم أعراض الاضطراب النفسى عند الطفل الأعراض الجسميه خاصة آلام البطن ، والقىءوالغثيان وما يتلو ذلك من فقد الشهية وفقد الوزن وهناك كثير من الأطفال الذين يتعرضون لعمليات جراحية خاصة استئصال اللوزتين ، وكذلك استئصال الزائدة الدودية ، وذلك تحت تأثير الاعتقاد بأن آلام البطن سببها هذه الأمراض ولكن الآلام تستمر حتى بعد إجراء الجراحة ، ويكتشف الطبيب بعد مدة طويلة أن هذه الآلام نفسية وأن الطفل يعبر عن اضطرابه النفسى من خلال هذه الآلام .
وغالباً ما تبدأ هذه الآلام صباحاً قبل الذهاب إلى المدرسة ، وبذلك تتيح للطفل فرصة التغيب عن المدرسة ، بل وأحياناً يقتصر حدوث هذه الآلام على أيام خاصة ، كأن تحدث فى اليوم الخاص بدرس الرياضة ، أو اللغة العربية إلخ ، لأن الطفل يخشى مدرس أو مدرسة هذه المادة .
وهنا يعبر عن استيائه وخوفه وقلقه من خلال هذه الأوجاع

وبهذه المناسبة أذكر حالة ذلك الطفل الذى كان يشعر بأن مدرسة الرياضة تسىء معاملته دائماً وتهينه أمام زملائه ، وتستخف بآرائه ، وتسخر منه ، بدأ هذا الطفل يعانى من آلام البطن والقىء مرتين أسبوعياً .

وحار الأطباء فى أمره ، وأجريت له عمليات استئصال الزائدة وكذلك اللوزتين . واستمرت البحوث والتحليلات لشهور عديدة حتى استبد الفزع بالوالدين على صحة الطفل . وأخيراً بعد تحويله إلى الطبيب النفسى تبين أن هذه الآلام لا يعانى منها الطفل إلا أثناء أيام دروس الرياضة . . وبعد تفسير الأمر للمدرسة وتحسين معاملتها للطفل . اختفت الآلام .

وعلى الرغم من تعدد المظاهر التى يعبر بها الطفل عن اضطرابه النفسى ، فأحياناً ما يشكو الطفل من الاكتئاب مباشرة ، ويبدأ فى البكاء من أقل سبب ، ويكون سريع الإثارة ، ويضطرب نومه ويفقد شهيته وينعزل عن أصحابه ويرفض الذهاب إلى المدرسة ، وفى أحوال نادرة قد يقدم على الانتحار . ويبدو الانتحار بالنسبة للطفل احتمالا بعيد التحقيق ، ولكننا فى بعض الأحيان نواجه هذه المشكلة ، وهى تدل على مدى عمق الاكتئاب والحزن اللذين انتابا الطفل ، وعدم فهم المحيطين به لمشاعره وأحاسيسه .

وأيًّا كان الأمر فإن الأعراض العضوية ، والسلوك الغريب ، والانقباض النفسى والعزلة عن الآخرين ينبغى أن تكون موضع الاهتمام عندما تلاحظ فى الأطفال وخاصة عندما لا يجد طبيب الأطفال سبباً عضويًّا يؤدى إلى ظهورها هنا يجب أن يكون ذلك علامة إنذار بحاجة الطفل إلى عرضه على طبيب نفسى .

العلاج النفسى للأطفال

يمر علاج هؤلاء الأطفال بثلاث مراحل

١ – محاولة فهم المحيط العائلى وعلاقة الطفل بالوالدين والإخوة مع

محاولة تنظيم هذه العلاقة الدقيقة حتى لا يكون الطفل عرضة للاضطراب النفسى وتوجيه الأبوين إلى كيفية معاملته ، وذلك بعد دراسة ومعرفة العوامل التى أدت إلى ظهور أعراض المرض النفسى .

٢ - دراسة المناخ المدرسى وعلاقة الطفل بزملائه ومدرسيه ، وقدراته على التحصيل ، لأنه ربما قد وضع فى مدرسة تحتاج إلى مستوى ذكاء أكثر من قدرته وبهذا نظلمه ويضغط الوالدان عليه وهو غير قادر على مجاراتهما فيبدأ الشكوى من الأعراض السابقة .

٣ - العلاج النفسى للطفل سواء عن طريق اللعب أو الرسم لاكتشاف الصراعات الداخلية له ، ومحاولة تبين ما إذا كان الطفل سويًا ، أو منحرفاً ، وعما إذا كان السبب فى انحرافه القلق أو الخوف أو الشعور بالنقص ، أو الإحساس بالذنب أو الوسواس وعلى ضوء معرفة سبب الانحراف يتجه العلاج النفسى للطفل .

٤ - العلاج الدوائى يمكن استخدام العلاج الدوائى وهو صيحة جديدة فى علاج الاضطرابات النفسية للأطفال ، إذ يبدو أن المؤثرات البيئية قد تؤثر أحياناً فى هرمونات الجهاز العصبى للطفل . . وتبدأ حلقة مفرغة يجب وقفها بالعقاقير المضادة للاضطراب السلوكى والاكتئاب ولكن بكميات تقل كثيراً عما يستعمل الكبار

وأخيراً أوجه النصيحة للآباء والأمهات . إن السبب فى الاضطرابات النفسية لاطفالنا فى أننا لا نحترم شعورهم وإحساسهم ، ولا نعطيهم المقدار الكافى من الحب والاستقرار العاطفى ، ولا نشبع حاجتهم إلى الرعاية ، فإذا تذكرنا أن الطفل إنسان شديد الحساسية وأن له حقوقاً ينبغى أن تلبى

وحاجات ينبغى أن تشبع فإننا فى نفس الوقت نتيح له الفرصة بطريق غير مباشر لكى يشعر ويحس بأن الحياة تستحق أن يعيشها مستمتعاً وسعيداً .

مما سبق يمكننا أن ندرك أن الطب النفسى للأطفال اصبح اليوم ضرورة جوهرية لا سبيل إلى الاستغناء عنها أو التساهل فيها إذا شئنا أن ننهض بواجبنا كاملا إزاء الطفل وإزاء الوطن على حد سواء ، أى إذا شئنا أن نعد الطفل اليوم لتحمل تبعات الغد ، مع القدرة على أن ينعم بحياته معاً

الفهرس

الصفحة

الصفحة

رقم الإيداع	١٩٩٥ /٥٢٥٣	
الترقيم الدولى	977 - 02 - 4979 - 3	ISBN

١ / ٩٤ / ١٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

